في فوهة البندقية

عنوان الكتاب: في فوهة البندقية

الكاتب: بونيف لزهاري

الناشر: ماروشكا للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى: أكتوبر ٢٠٢١ م

ردمك: ٩٧٨-٩٩٣١-٨٤٢-٠٠-٠

المدير العام: بن وارث أمال

لمراسلة الدار:

إيمايل: marouchka.edition@gmail.com

هاتف: +٢١٣٦٩٧٧١٧٠٥٠

جميع حقوق النشر الورقي والإلكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر، وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن منه.

ماروشكا
للنشر والتوزيع

في فوهة البندقية

رواية

بونيف لزهاري

دار أوشيا
للنشر والتوزيع

إهداء

إليكِ شيئا من قلبي...

وإليكِ الباقي...

وإن متُّ، فأنا فيك حيّ...

«إنّ هذا الحبّ في كلّ زمانٍ وفي كلّ مكانٍ، ولكنّه يشتدّ كثافة كلّما اقتربَ من الموت»

غابريال غارسيا ماركيز

رواية: الحب في زمن الكوليرا

...أيها العازف على قلبي

اِعزف برفق...

كي لا تقطع أوتاري!!

الفصل (١١)

البدايات هي نهايات لأشياء أخرى

اليوم الأوّل من فبراير..

شمس تتخللها نسمات شتوية لاسعة..

التوقيت؛ العاشرة صباحا..

المكان؛ مدينة البندقية الإيطالية..

تحديدا مقهى ميدان سان ماركو..

تتوزّع الموائد أمام المقهى، تصطف بانتظام، تتظلّل بمظلات شمسية جميلة ذات ألوان زاهية، الموائد مكتظّة عن آخرها، أشخاصٌ من مختلف الأعمار والأجناس، تتشابك الأصوات بكل اللغات، وهي تستمع إلى روائع لوتشانو بافاروتي، تتصاعد أدخنة السجائر هنا وهناك، تحجب الوجوه ثم تتراقص عاليا، تتطاير متلاشية مع هبات نسمات الهواء الباردة حيث لا يدري أحد...

قبالة المقهى ساحة واسعة، تتغرز في أرضيتها أعمدة كهربائية طويلة سوداء، ذات ثلاثة رؤوس زجاجية، كروية الشكل، بيضاء اللون، تتزخرف بأروع الأشكال الرومانية القديمة، وفي نهاية هذه الرحابة تتربع كاتدرائية القديس مرقس على المكان هيبة وجمالا، إذ تعانق قبتها وجه السماء، وجذورها تتعمّق في قلب الأرض، تحكي قصة ألف عام من التاريخ، في لوحة فنية رائعة ينعكس شيء منها في وجه البحر،

تسبح في حركة متمايلة راقصة، أذهلت عمّــار، وفي سماء المكان وعلى أرضه أسراب حمام مختلفة الأشكال والألوان تحطّ وتطير، كأنّها ترقص على أغنية أو ترسم لوحة فنية، تفعل ذلك في حركة دؤوبة لا تنقطع.

سياح كثيرون يتجولون أزواجا أزواجا، عشاق من كل الأعمار يقضون شهر العسل، أو يقضون ما بقي لهم من عمر في أجمل مدن العالم، مدينة الرومانسية والحبّ، تتعالى الضحكات هنا وهناك، وتتعالى خلالها صيحات الأطفال، وفي كل مرة يلتقطون صورا تذكارية، يحاولون القبض على روح اللحظة التي يعيشونها، فالصورة اختُزِعتْ لتمسك إحساس اللحظة الرائع ثم تسافر بها إلى أزمنة قادمة وأمكنة بعيدة محاولة أن تثبّتَ ما لا يُثبّت من أحاسيس عابرة، لا تلبث أن تبعثرها رياح الزمن رويدا رويدا.

نزعتْ ماتيا نظارتها السوداء الكبيرة من على وجهها الدائري الأبيض الجميل، كاشفة عن عيون خضراء كريستالية برّاقة، وضعتهما على مائدة دائرية تتوسطها مع عمّــار، وقُرْبَ كلِّ واحدٍ منهما فنجان قهوة سوداء.

بحركةٍ هادئةٍ جداً، أزاحتْ بيدها الرقيقة بضع شعيرات عن جبهتها البيضاء، تغازلها نسمات الشتاء الباردة بعبثٍ، شعيراتٌ تُصرّ على ملامسة جبهتها، وحين تشْتدّ الرياح أكثر تضرب تلك الشعيرات شفاهها الغليظة المصقولة بأحمر شفاه قاتم حادّ السّواد على وجه ناصع البياض، تجلس في رقةٍ متناهيةٍ بجسم أنثويٍّ يغطّيه سروال جينز أحمر يُبرز تفاصيلها، وقميص أسود يضمّ نصفها الأعلى، تفتحه كاشفة عن صدرها، وعليه قلادة ذهبية تتمايل على شكل سمكة صغيرة وتتأرجح كلما اهتزتْ أو التفتْ، وعنقٍ رقيقٍ، وعلى أذنيها يتراقص قرطان على

صورة مرساة صغيرة، وعيون كبيرة، وأنف صغير كتحفةٍ فنيةٍ متقنة الصنعِ، وشعرٍ كثيف السواد، مجعّد يتجاوز كتفيها حتى أول ظهرها...

تبدو الجلسة رومانسية في ظاهرها، يلتقطان نصيبا معتبرا من دفء الشمس والحكاية، وفي حقيقة الأمر هي حرب فلسفية بين فكرتين متعارضتين، لا أحد سينتصر في الأخير، ولا أحد يستسلم.

دققتْ ماتيا في عيون عمار، تريد صبر أغواره وكسر صمته المفاجئ له قائلة:

– أنتم عادة ما تتزوجون سريعا... فلماذا لم تتزوج إلى الآن؟!

قبل أن يجيبها وضع السيجارة على المطفأة ليفرغ جمرها بضربتين متتاليتين بسبابته اليمنى، نفث من صدره ما تبقى من دفعات أدخنة سيجارته، ثم فرقع أصابعه، شبكهما إلى أعلى صدره، ضمّهما بشيء من القوة، نظر إليها نظرات حادة كالتي بدأتها هي مع ابتسامة خفيفة على شفتيه...

– ههه... ربما لأنّي لم أتورّط..

أطلقتْ ابتسامة ماكرة تكذب كلامه... ردتْ:

– تقول الأسطورة أن على زائر المدينة أن يصطحب زوجته لا خطيبته أو صاحبته، أتدري لماذا؟

– أنا لم أصطحب أحدا، فلا تهتمي.

– قل إنك لا تريد التورط.

انفجر ضاحكا...

– ههه... ليكن ذلك...

– أحد الأمثال الإيطالية يقول: الهارب عن الحب منتصر... وأنت تتهرب!

قبل أن يجيب، أضافت:

– أنت مراوغ كبير... لماذا أنت هنا؟

– هذا المكان لا يصلح إلا للسياحة.

قاطعته:

– ويصلح للحبّ أيضا.

– الحبّ يصير جنونا في زمن الكورونا.

– وربما يزيده اشتعالا.

– الاشتعال لابد أن ينطفئ.

– الجنس يطفئ الحبّ.

– أتصدقين أسطورة العاشق كازانوفا الرجل اللعوب الذي أسقط مئات النساء في شباكه؟

– هي حقيقة لا أسطورة.

– أعتقدها أسطورة.

أضاف، ومازالت الابتسامة ترتسم على شفتيه:

– لا يجب الخلط بين الحبّ والجنس.

– يختلط الأمر أحيانا، بل يجب أن يختلط مرات أخرى ليعطي للحبِّ معنى.

– الحبّ كالغرق لمن لا يجيد السباحة.

– الغارقون في الحبِّ لا يطلبون النجدة، وألم العشق ممتع للبعض.

– لا أريد أن أكون مثل بابلو بيكاسو زير نساء.

– ههه... يكون الفنان رقيقا، عاشقا للنساء كعشقه للفنّ.

– بابلو بيكاسو كان سبب انتحار بعضهن وعذاب أخريات، كان يقول: الفن هو الكذبة التي تمكننا من إدراك الحقيقة... قالها وعاشها، أما فان جوخ فقد ضيعه الحبّ وأصيب بالجنون.

أحستْ ماتيا أن عمار شخص غريب، لم تقابل شخصا مثله قط، فيلسوف أو استطاع الإدعاء بذلك، كلما انفردتْ به شعرت أنه كأزقة البندقية التي تشبه المتاهة، يتيه فيها أحيانا كثيرة من السياح، وتتوه هي فيه عند كل جلسة معه...

كان حديثاً أعمق عمّا سبق من الأحاديث، تريد ماتيا أن تعرف سرّ وجود عمار في إيطاليا في زمن الكورونا...

– أهو الحبّ؟

هو ينكر ما تبرق به عيناه...

– أم هو أمر آخر أكبر منه؟

لكنها تستدرك مرة أخرى:

– لا شيء أكبر من الحبّ...

– صحيح... لا شيء...!!

تخلط بين الإعجاب والفضول، بين الصداقة والحبّ، تريد أن

تُلامس الحبّ بجرأةٍ مفرطة، تريد كسر ذلك الجدار بينهما، جدار تشعر به كلّما قابلتهُ، يمنعها عن الغوص في عقله الغامض أو في قلبه النابض، تريد البحث عنه... فيه، رغم أنه كثير الكلام، لكن لاشيء واضح في شخصيته إلا إذا أراد هو ذلك وهو أمر نادر جدا، شاب وسيم وأنيق جدا، حركاته هادئة، متوسط الطول بشعرٍ أسود كثيف أملس، وعيون سوداء كبيرة، وشارب أسود كثيف، حادّة طباعه في أغلب الأحوال، سريع في تقلب مزاجه، هي معجبة بمظهره الأنيق ولحيته الكثّة السّوداء جدا، وهو مرتدٍ نظارة سوداء لا تفارقه، يبدو مثقفا جدا، يتقن جيدا الفرنسية والإنجليزية وكثيرا من الإيطالية، كما أنه رسّام موهوب، وقد كشف لها بعض أعماله الفنية التي يحتفظ بها في هاتفه الجوال، شاعر متألّق أيضا، متحصّل على شهادة ماجيستر في الآداب الأجنبية كما أخبرها بذلك، مهتمّ بمجالات الثقافة بصفة عامة ومحبّ لها جدا، لكن تعامله يبدو سطحيا جدا، أو أنه ذكي جدا معها يتعمد السطحيّة، لكن من غير المعقول بالنسبة لها أن يكون شخص مثله يُتهم بالسطحية... يحبّ الفن بل يعشقه، يقول أن الفن لغة العالم أجمع، وأن الفن كفيل بتوحيد العالم، وهو الوحيد القادر على ذلك لأنه رمز صادق للسلام... وللحبّ أيضا.

تثير عمار ماتيا في رقصات الباليه التي تؤديها كل ليلة حيث يحضرها في مسارح الأوبرا بدعوة منها على وقع موسيقى إيطالية، رقصات تتحدى أحاديث الوباء الذي تتكلّم عنه صفحات التواصل الاجتماعي وقنوات العالم الإخبارية، وباء يكبر ككثرة الثلج، تمتد أياديه كأخطبوط كبير، يتأمل عمار، يحاول أن يفهم كل رقصة كما يفهم أي لوحة، كأنه يريد رسمها.

أبدى انبهاره بروعة اللوحات الفنية التي سلبتْ عقله، وأنْسته نفسه.

أن ترى لوحات زيتية عالمية أمام ناظريك ليس كصور الهاتف أو شاشات الكومبيوتر أو التلفزة، يشعر أنه يجلس مع أصحابها، هو يفهمهم لأنه فنّان مثلهم، لوحة تُبكيك، وأخرى تُسعدك، وأُخرى لا تدري، ربما تُلهمك، وغيرها تجمع كل المشاعر دفعة واحدة، وأخرى تُبهرك، لا يفهمها إلا راسمها، وهي التي تجعل عمار مندهشا أمامها...

أما الشيء الذي يبهره على الإطلاق، هو أن ترسم شيئا لا تفهمه ولكن يبكيك كثيرا جدا.

مدينة البندقية تُذكّر عمار بوهران المدينة التي انسل منها في ظروف خاصة قبل أسبوع، وما تتقاسمه المدينتان من أوجه شبه كثيرة جدا، يرى فينيسيا الآن أجمل من التي كان يسمع عنها أو يراها على اليوتيوب، فاليوتيوب لا يمكن أن ينقل ذلك الإحساس الناشئ عن استنشاق نسمات هواء تبعث في النفس انتعاش الروح، ولا ينقل لك رائحة البحر الممزوجة باستيقاظ المقاهي الجميلة كل صباح، وأهازيج البحارة في قلب المدينة حيث تتداخل نسمات البحر وأحجار الأرض، يخترق الماء في رقرقة متواصلة أحضان مدينة جميلة تتزين مع غروب كل شمس.

يقف على جسر ريالتو يتأمّل المكان والزمان، الذي يحكي قصة أربعمائة سنة من التاريخ، تخترقه القناة المائية، وعلى ضفتي القناة من كلا الجانبين أعمدة كثيرة غائرة فيها، تستعمل في تثبيت الجنادل الكثيرة والقوارب المتنوعة كمحطات لبدء الرحلة ونهايتها.

يختفي تحت الجسر جندول على متنه رجل وامرأة يجلسان في ضحكات مع السائق الواقف الذي يحمل المجداف الطويل الذي يفوقه طولا، يشق عباب أمواج الماء ببطء، بينما يحيّ بلهجة إيطالية سريعة كل الذي

يمر عليه من زملائه، ينزع قبعته للسيدات اللواتي يقابلنه وينحني مبديا احترامه، ثم يختفي الجندول تحت الجسر الذي يجمع سان ماركو بسان بولو، وبعد كل غروب جميل هناك صباح يحمل مفاجآته، لكل شخص صباحاته...

أما عــمّار فقد طالت صباحاته...

يمرّ أسبوع بلياليه الباردة، وتتفاقم أخبار الكورونا حول العالم، ولا يبدو أن الناس في إيطاليا يكترثون للأمر، ولا حتى ماتيا ولا عشيقها مراد الغائب، ولا حتى صديقهما عمّار، الأخبار تؤكد أن الصين تعيش الكارثة في عدد الإصابات والأموات، خاصة مدينة يوهان الصينية مصدر الوباء، هناك من يقول أن الناس تتساقط في أزقتها، وأن المستشفيات ترفض استقبال مزيد من المرضى لعدم وجود الأسِرة، بل تطردهم من مصالحها، فأصبحت الجثث ملقاة على الطرقات كأكياس القمامة، إلا أن كثيرا من السكان في البندقية وإيطاليا عامة يقولون أن الأنترنت يكذب ويزوّر الحقائق، وأنه لا يجدر بنا تصديق كل ما نراه أو نسمعه، تزييف الصورة أمر صار ممكنا في هذا الوقت، يجب أن لا نكون في نظر العالم أغبياء.

يخبر روبرتو عمار الرجل العجوز الذي يلبس قميصا أبيضا مخططا بالسواد، الذي يملك جندولا، وينقله دائما مع ماتيا في أرجاء المدينة العائمة، والذي لا يكفّ عن الكلام السريع الذي يجد عمــــّار صعوبة في فهمه كلّه، لكن بعض الكلمات يمكن استنتاجها من سياق الكلام، وبين هذا وذاك يطلق أهازيجا تعبر عن سعادته وبهجته لأنه ولد في إيطاليا، فليس كل شخص يفتخر بالبلد الذي ولد فيه.

وبين الحين والآخر يرقص محركاً خصره الصغير يمينا وشمالا، وهو

يخاطب ماتيا ضاحكا:

– هل أعرف الرقص يا ماتيا؟ ههه... قولي هه.. أنا متأكد أني لستُ بمثل رشاقتك لكنّي ممتاز بالنسبة لعمري ههه.. أليس كذلك؟ أُنظري...

لتنطلق القهقات من كلّ من يشاهده من الذين يتقاطع معهم من سياح وزملائه الآخرين، تتعالى أصواتهم بالسخرية والضحك والنداء:

– روبرتو أيها العجوز المشاكس... ههه.

طوال الرحلة في الجندول لا يكاد روبرتو يتوقف عن الكلام...

يتكلم بشيء من الجدية، يقول:

– أتعلمان أن الطاعون أو الموت الأسود كما يسمونه قديما قد حدث فعلا قبل مئات السنين في إيطاليا وفي البندقية بالذات؟ لكن الامبراطورية الرومانية العظيمة التي سيطرتْ على العالم آنذاك عصية على فيروس كورونا أو غيره من الأعداء، لقد اكتسبت حصانة خالدة منه بفضل مباركة الربّ.

شكّل بيديه إشارة التعميد المسيحية وقد وضع المجداف تحت إبطه...

ثم أكمل:

– صحيح أن الآلاف قضوا نحبهم خلال الطاعون الذي نقله الفرنسيون والألمان آنذاك من أقصى آسيا، لكنّي متأكد أن الربّ قد أرسل الطاعون آنذاك بسبب الذنوب والآثام البشرية، كان الكهنة والرهبان يجوبون الشوارع في مواكب التطهُّر من الآثام لإبعاده، وكان التطهُّر يحفل بعمليات انتقامية دموية بين جموع الناس المتباغضة تحت

شعار: شكرًا للرب... يقومون بعمليات الفصد دواء وعلاجا له، وقد شارك الحلاّقون مع الأطباء يشقون أوردة المرضى استخراجا للدماء، واستعملوا ديدان العلق لامتصاص القيح والدمامل، بينما فضّل البعض خوفا الابتعاد عن هواء العالم الخارجي والعيش داخل المجاري والأماكن المعزولة والمزارع البعيدة... يسير الرجل في الشارع فلا يرى أحدا لكثرة الموتى، وعلت الأتربة على أرصفة الطرقات ووسطها، وتنكّرتْ وُجوه الناس بالأقنعة، وامتلأت الأماكن بالنواح فلا تجدُ بيتًا إلا و فيه صيحات بكاء، ولا تمر بشارع إلا وفيه أموات أو مرضى، وصارت النعوش تتراكم فوق بعضها البعض، والأموات يختلطون فلا يعرف شخص من غيره، وبقيت الأزقة والدروب مما فيها من الدُّور المتعددة خالية، وصارت أمتعة أهلها لا تجدُ مَن يأخذها، وإذا ورث إنسان شيئًا انتقل في يوم واحد منه إلى غيره كثيرا، حُرقتْ الجثث حيث لم تتسع باحات الكنائس لكثرتها، مع أن الحرق مخالف لتعاليم الكنيسة، فأصبحت الجثث ترمى في الخنادق دفعة واحدة دون تفريق ولا تمييز ولا مراسم دفن لائقة.

يضيف روبرتو وقد انهمرت دمعات من عينيه، قائلا:

– إن الداء انتقل عن طريق البراغيث التي كانت في الفئران التي تعيش على متن السفن التجارية، واستغرق الأمر ما بين عشرة إلى أربع عشرة يوما قبل أن يتسبب الطاعون في مقتل معظم مستعمرة الفئران المصابة، وبعد أيام من الجوع تحولت براغيث الفئران الجائعة إلى الناس، حيث تؤدي لدغاتها إلى حدوث تورم خبيث، غالبا ما يكون في الفخذ أو الإبط أو العنق، وهناك من هربوا إلى مدن وأماكن بعيدة رعبا من العدوى...

لكنه يستدرك في ضحكة مصطنعة مملؤة بالدموع، محاولا طرد خوفهما وخوفه، بعد استرساله الطويل في الكلام المرعب:

– لا تخافوا... فقد قام الاطباء آنذاك بصنع أقنعة على شكل منقار، يحتوي على مواد عطرية تتضمّن توت العرعر والعنبر والورد وأوراق النعناع والكافور والقرنفل ومحلول الأفيون، منقار على شكل أنف يُحشى بالأعشاب والتوابل، يقوم بمنع استنشاق الروائح النتنة المنبعثة من المرضى، تتكون البدلة الواقية من معطف صنع من نسيج خفيف مشمع به عيون زجاجية، ثم يقوم أطباء الطاعون عادة بحمل قصبة طويلة لفحص وتحريك المرضى دون الحاجة إلى لمسهم، كانت المدن أيضا قذرة جدا مليئة بالقمل والبراغيث والفئران، مليئة بالأمراض الناتجة عن وساخة الأمكنة...

أضاف صارخا، وقد فتح فاهه وعيونه وانكمشت ناصيته:

– يقول الناس أن المرض تسببت فيه القوى الخارقة والزلازل، وهناك من يقول أنه جاء من تسميم اليهود للآبار، وكلها من غضب الإله وحده الذي يمكن أن ينتج مثل هذه المظاهر المرعبة، لذلك كانت هناك العديد من الهجمات ضد الجماعات اليهودية، حينها قُتل ٢٠٠٠ يهودي في صيف ذلك العام، لقد أُبيدت الجاليات اليهودية بعد اتهامهم من قبل الناس، واتُهِم الرهبان والأجانب والمتسولون والحجاج والمصابون بالجذام والغجر معتقدين أنهم هم المسؤولون عن غضب الربّ...

يصمتُ قليلا، ثم يكمل:

– صدقوني... إيطاليا اليوم أقوى من أيّ وقت مضى، إنها تحتل المراكز الأولى في الرعاية الصحية على مستوى العالم كله... قديما فرض القادة حجراً صحياً يدوم أربعين يوما على الأقل للقادمين من الخارج

في سفنهم، وأوقفوا تدفّق التجار والمسافرين، واليوم أظنها لن تمنع أحدا...

استطرد ضاحكا متأسفا:

– ههه... أيها العاشقان، أتأسّف جدا إذا أثرت خوفكما، إنه التاريخ يتحدث، أنا عاشق للتاريخ بحلاوته ومرارته.

يضحكان، ولا يكترثان لكلامه لوصفهما بالعاشقين...

لا يعني التجول مع بعض بالضرورة عشقا، هناك أسباب كثيرة تجعل الناس يتجولون مع بعضهم دون عشق، كالسجين والسجّان...

يبدو أن العاشقين كذلك كالسجين والسّجان...

ربما لأنه رآهما يتنقلان كثيرا مع بعض، ورأى أنهما يناسبان بعضهما البعض...

كانت ماتيا تتمنّى ذلك، وكان عمار يفكّر في أشياء أخرى...

يتذكّر أنه قرأ يوما ما رواية ألبير كامو عن وهران المدينة التي ولد فيها، فأثارت مخاوفه الآن أكثر من ذي قبل، أحيانا تجعله ينظر في بلاط الأزقة الضيقة التي يمرّ بها، ربما يصادف نفوق فأر ما، ولأنه يعلم أن بعض الرواة يستشرفون المستقبل... لو تحقق الاستشراف سيهلك أحبابه وأهله، لكنه لاحظ كثرة القطط، أو حراس المدينة من الوباء...

التاريخ لا يذكر لوهران أن شهدت وباء كالذي روت الرواية مآسيه، هو يعرف أن الأعمال الأدبية عميقة في دلالتها، تبعث الرسائل بين السطور والكلمات، فتتفرع التأويلات إلى أبعد من ظاهر الألفاظ ووجه النص، تماما كاللوحات التي يرسمها في أشكالها وألوانها أو مجرد نقطة فيها.

في أرض دولة إيطاليا، وحسب الأخبار التي يشاهدها كل صباح على مقهى ساحة كنيسة سان ماركو على جوّاله، فإن أعداد الموتى الأولية لا تُنذر بخطر كبير، وعدد الإصابات بعيدة عمّا هو موجود في الصين... أما في مدينة البندقية لم تسجل أي حالة، الناس في لهو ليلا ونهارا، ما عدا أن الرحلات بينها وبين الصين توقفتْ سريعا، وكثير من البلدان بدأت تقلّص رحلاتها إلا للضرورة القصوى أو وفق برنامج محدد.

حركة الناس في المدينة مازالت عادية، وتنقل السيّاح مستمر، بينما الرقص متواصل في كل المحافل والمسارح مع توافد الزوار إليها بشكل متواصل، والكلّ في شغف كبير، منتظرين أن يشاهدوا أحد أجمل كرنفالات العالم، كرنفال البندقية البديع...

يُصرّ روبرتو:

– رغم كل المآسي، مشيئة الربّ لا بدّ أن نرضى بها.

يستمع عمّـــار لكلامه باهتمام كبير، وروبرتو يتلاعب بعواطف من يسمعه، إلا أن عمار يتجول بناظريه في أنحاء مدينة امتلأت نوافذا تطل من جميع البنايات متزينة بباقات الورود، وبعد كلام روبرتو عن تاريخها الأسود كأنها ليست هذه المدينة التي تحدث عنها، صارت بكلامه من أحزن بلدان العالم ومن أجملها كذلك، وكأنّ الحزن يصنع من الأشياء تحفا ما!

تتحوّل السعادة إلى حزن بمجرد أحرف بسيطة تقذفها أنفاس الآخرين في قلوبنا...

يتنهّـــد عمار دافعاً بكومة هواء من خارج رئتيه على شكل زفير طويل، متحسّرا، يهمس لنفسه:

– المدينة التي ليست فيها حبيبتي، ليست مدينتي.

هي الجملة التي لم تسمعها ماتيا...

*****

تعرفتْ على كثير من الرجال، لكنّها لم تصادف شخصا كعمـّار... تعرفتْ على مراد صديق طفولته منذ خمس سنوات، فوقعتْ صريعة في حبّه أو ما تظنّه حبّاً، لكن ما الذي يحدث لها الآن بعد أن ظهر عمار في الصورة؟

أكان مراد مجرّد مزحة أو نزوة عابرة، كما كان غيره...؟

أم أنه لا يتقن فن الكلام الرومانسي...؟

أم أن للأرواح كلمة أخرى؟

أم هي لعبة الأقدار؟

تتخبّط ماتيا أكثر من أي وقت مضى، كسمكة في يد صياد، مع رجل لا تعرفه إلا منذ أسبوع فقط، تشعر بالخيانة والعار مرة، ومن نبض جديد مرة أخرى...

أيمكن أن يكون النضوج هو الذي يسبب تغيير وجهات نظرنا أم أن نبضاتنا تصبح أصدق من ذي قبل؟

«ليست خيانة»، تخاطب نفسها محاولة إقناعها... «بل هي نضوج عن مراهقة أو ترتيب أجمل لأحاسيسنا»، تكلّم نفسها أحيانا أخرى...

يظلّ الخوف والترقّب سيدّا الموقف...

استضافته إلى حفلها الراقص في الأوبرا، كان مشدود الانتباه في كل مكان إلا فيها، نظراته تستمر في غموضها، ثم ترتمي بعيدا عنها كلما

ركزت فيه، لو كان يضمر لها أي مشاعر لنطق بكلمات الحبّ...

ربما ترى أنها متسرّعة في ردود الأفعال، وهو غامض في إعلان مشاعره، وربما لا شيء موجود، ربما وجوده وهمٌ كسرابٍ في صحراء، وربما تضع الأيام مولودا جديدا اسمه حبٌّ.

هي صريحة جدا، بيد أنّه ليس مثلها، أفقدها قوة المواجهة فصارت تضعف شيئا فشيئا، وهو لا يبدو أنه يضمر لها شيئا...

اعترف لها يوما بعد عرض طويل في الأوبرا...

– أنت أنيقة كطاووس بديع... كوردةٍ جميلة... كفراشة بريئة... كأي شيء جميل في هذا الكون.

كانت تنتظر كلاما آخر، إلا أن كلامه كان كالسحر الذي لا يمكن الانفلات منه، إطراء داعب مسامع قلبها لأول مرة، الغريب أنها سمعت كهذه الكلمات كثيرا من قبل المعجبين دون أن تتحرك مشاعرها بمثل هذه القوة.

كلام من نحب أقوى وقعا من غيره، سواء كان جميلا أو سيئا...

لقد صار النبض الآن كمعول حفر في قلبها، يؤلم ويزداد عمقا...

لمّح له صديقه مراد أنه لا يحبّذ أن تتطور العلاقة بينهما إلى أمور لا يقبلها، وأجابه عمار أنه لا يريد أن يخون تلك التي تنتظره في مكان آخر من العالم، مخفيا عنه تلك القبلات الساخنة التي تبادلها مع ماتيا في ليلة صاخبة في شوارع المدينة المظلمة وهما مخموران، لكنه سرعان ما تدارك الأمر ونهرها حتى لا يتطور الأمر إلى السرير... لا يمكن أن تكون هذه اللحظات المشتعلة السكين الذي يذبح به علاقته بمـــراد الذي فتح له منزله منذ قدومه من الجزائر، وحتى لا تكون الحاجز الذي يقطع طريقه

نحو حبيبته البعيدة، لا يتقابل مع مراد إلا نادرا، لم يخبره عن عمله الذي يجهله، ويتهرب عن الإفصاح عن العمل حيث يأخذ كل وقته، وعندما يلحّ عليه طلبا لمعرفة وظيفته يخبره أنها أعمال حرة، وفي كل مرة يؤكّد له أن المنزل منزله، وأنه مرحّبٌ به حتى يغادر إلى مصر، حيث وجهته التالية التي لم يخبر بها أحدا سواه.

كل ما يفعله عمـــار الآن هو الانتظار إلى حين موعد الرحلة، إذْ لم يتمكّن من السفر إليها مباشرة من الجزائر، بعد توقف الرحلات بين البلدين، ها هو يصرّ على وجهته من مكان آخر في العالم...

موعد انتظره منذ سنتين، أراد سبق الأحداث كعادته، أن يحلق كالطائر من مكانه هذا إلى حيث تلتئم الجراح التي نسجها البعد.

أخته الكبرى نسرين علمته التحليق... ما يزال يتذكّر مقولتها حيث تداعبه:

- مازلت يا عمّار صغيرا.

يعترض عن وصفها له بالصغير، مازحا أنه أصبح أطول منها وأعرض أيضاً، فتقاطعه ضاحكة:

- ههه... ليس الكبر بالحجم يا أخي العزيز.

كان متأكدا من صدق كلامها، ستكشفه الأيام في مرحلة ما من العمر، عندها ننضج وننبهر بحجم بُعدنا عن الحقيقة، كان يعزي نفسه بالشطر الأخير من كلامها المتكرر، حين كانت تقول:

- إنك تستحقّ كل أمانيك.

عندها يشعر أن أجنحة نبتتْ على ظهره تمكنه من التحليق عاليا فوق كل المصاعب بكل يسْر، الدعوات التي تردّدها على مسامعه تجعله أكثر

قوة وكأنّها شحنات كهربائية تدفعه مسافات إضافية إلى الأمام، وإلى الأمنية التي يريدها... أمنيّة كنقطة هروب في قلب رسمة معقدة.

أخته التي يُناديها أمي بدل أمّه التي فقدها دون أن يعي ذلك الفقد، فالفقد بدون ذاكرة يتلاشى قبل أن يتكوّن، أما عن الأب فهو علامة الاستفهام الكبيرة التي لازالت قائمة، تتهرب دائما من الإجابة الشافية، فيكبر الاستفهام أكثر بدل أن يتلاشى مع الزمن، لم يبق من أبيه إلا صورة ضبابية تظهره مبتسما بدون يده اليسرى، أخبرته أخته أنها بُتِرَت جرّاء قنبلة يدوية كان يعبث بها دون أن يدري، وهو مازال صبيا، لكن اليد الأخرى أنست العالم اليد المبتورة في اللوحات التي كان يبدعها أبوه في رسماته.

ليس المهم من أين ننطلق ولا الطريق الذي نسلكه، الأهم هي النهاية أو المكان الذي نقصده والهدف الذي نصبو إليه، وليس المهم عدد الأيام بقدر أهمية أن نصل فعلا، ولو بعد فترة من الزمن.

منذ أن قدِم إلى إيطاليا وهو يفكر في هذه الرحلة، والشيء الذي يشغله منذ أيام عن انقطاع اتصاله بحبيبته إذ أُغلق حسابها على الفيسبوك، بعدما كان قبل ذلك يراسلها كل يوم وكل ليلة.

كانت تخبره أنها في انتظاره، في انتظار فارس أحلامها القادم من بعيد، من مكان لم تتصور أن يأتي منه مَن اختارته لبقية حياتها أو اختاره القدر لها.

الأقدار تفعل فعلتها، تُلاقي القلوب، عاشقان لنفس الأشياء، ونفس الألوان، ونفس المبادئ، وأشياء مشتركة اكتشفاها؛ زادت الاقتراب فالتهب الحبّ، كانت كلمات عابرة لكنها صادقة في زمن الكذب، توطدت علاقتهما في صدفة صنعتها الأيام على أرض مصر في

أحد المؤتمرات، نظرات تطوّرت إلى كلمات ثم اكتسبت ولعا، وتأمّلت بلقاء واقعي ينتهي بالتقاء أبدي.

في أول خطوة تتعثّر أقدامه للمضي قدما نحو وجهته، عندما يتذكر إلغاء الرحلة من الجزائر بسبب وباء كورونا، مما أشعره بالخوف والارتباك، وكثيرا ما ينبّهها على صحتها، كونها طبيبة تعمل في قلب الوباء، معرضة لكل خطر، والآن وقد فقد كل تواصل معها، تطارده الشكوك عن السبب وتتضاعف نبضاته فزعا، لتنهال عليه الأسئلة...

أمرضت؟

أو تراجعت؟!

أو ماتت؟

آخر احتمال يقبض قلبه، يقشعر بدنه، يريد الطيران إليها ولا يستطيع، لم تنبت الأجنحة التي تحدثت عنها أخته...

وماتيا في الجانب الآخر تترصد زلة لسان، أو شيئا ما، أو كلمة ما تكشف بعضا منه...!

ما يزيده ارتباكا ورعبا هو الأنباء التي تظهر عن معاناة الأطقم الطبية ووفاة بعض الأطباء والممرضين في كل مكان من العالم إذ هم الخط الدفاعي الأول للوباء...

بينما عمار في حيرة من أمره، ترقد حبيبته نور طريحة الفراش، تتصبّب عرقا، منهارة تماما، تشعر بألم شديد في كل أنحاء جسمها، شاحبة الوجه متعبة، تحت عيونها هالة سوداء، على جانبيها في ذات الغرفة الكبيرة للمستشفى يرقد والداها العجوزان في صمت تام، سببه

أجهزة التنفس التي تحاول إنقاذهما من آثار المرض، تتمنى أن تموت كلّما اشتد سعال أحد والديها، تدرك متأخرة أنها سبب إصابتهما بالفيروس، تبكي كلما تذكرت ذلك، بكاء غزير الدموع بحرقة شديدة، ترفض أن تتحول من المكان، تريد أن تراهما أمامها رغم توسلات زملائها أن تتحول إلى غرفة أخرى، لكنها ترفض بشدة وبندم كذلك...

كانت تتمنى أن تخبر عـمّار فور إصابتها بالفيروس لكن لم يمهلوها، في قرارة نفسها لم ترد أن ترعبه، إصابة والديها بالفيروس عن طريقها تكفيها، تفقدها وعيها، تجعلها لا تفكر إلا في الكارثة التي تسببت فيها كونها طبيبة، من المفترض أن تدرك حجم الخطر الذي يحيط بهما، أن تكون صمام أمان لا ناقلة موت لهما... تخشى ألاّ تجدهما في صباح ما...

الفصل (٢)

في فوهة البندقية

قبل أن يتوجّه في آخر رحلة طيران إلى مصر، أهدى عمار ماتيا لوحة بصورتها، تظهر فيها وهي ترقص على خشبة المسرح، لوحة تكاد ترقص فيها، تستحوذ على كل من شاهدها، تكاد تطير بحركاتها خارج الإطار، ترتفع حتى تكاد تتمرّد على الحيز المكاني وتقفز من اللوحة، لتنطلق رقصا في كل مكان وفي سماء الآفاق، تتألق جمالا ثم تذوب في نفس المتلقي، تتجاوز القفزات الخيبات، وتتجاوز كل العالم، تتمايل مع الموسيقى، انحناء كانحناء الحياة، لا يناسب اللوحة إلا عنوان لحن الحرية، لا لون يطغى على اللوحة، بل تشترك كل الألوان في صنع روعتها، كما تكاتفت مواهبه في إتمام الصورة طيلة أيام لقائهما مع بعض... تكاد تتحرك الروح من عينيها... وفي النهاية تتشبث بالحيّز الزماني، حيثُ تتشبث في الذاكرة.

قالت له:

– أتعلم أن لوحتك تلك أشعرتني أني أرقص لأول مرة وأني سأرقص ليس ككل مرة بعد ذلك؟

قابلها بابتسامة عريضة، قائلا:

– إنها عين الفنان يا ماتيا، دائما يضيف شيئا ما إلى رسمته.

عندها تساءلت في طريقها إلى البيت:

– ماذا يقصد أنه يضيف شيئا ما؟ أيقصد أن يضيف إحساسه؟ أو شيئا آخر مرعبا؟

رسم الأشخاص تأريخ لكليهما، للّوحة في حد ذاتها ولرسامها كذلك، كلاهما مستفيد، كعاشقان وهما ليسا بعاشقين، وحتى ذلك للناظر من بعيد، حتى أن أفلاطون يقول: «كل إنسان يصبح شاعرا إذا لامس قلبه الحبّ».

قالت دون أن تستوعب حديثه المراوغ:

– أعلم ذلك...

غير أنها في حقيقة الأمر بقيت مشحونة بالأسئلة...

لقد أكلتِ الطعم... هذه اللوحة هدية الوداع...

في يوم سفره، تمام الساعة السابعة صباحا، يرنّ منبه الهاتف، يتقلّب عـمار على فراشه متجاهلا التنبيه محاولا إتمام نومه، تزيد الأشياء جمالا في نهايتها، تماما كما النوم وكذلك البندقية وقبلها وهران، دائما في النهايات نتذكر أن البدايات جميلة تستحق البقاء لكن...

يفتح عينيه، يتلمس بيديه، يبحث عن هاتفه المزعج، يتفقد الهاتف بنظرة خاطفة، يغلق الرنين، ثم يتوجه إلى الحمام، يحزم أشياءه الصغيرة التي حضّرها ليلة البارحة، وقد أخبر صديقه مـراد أنه سيغادر صباحا، ولم يخبر أحدا غيره.

تزداد مدينة البندقية جمالا كلما ابتعد عنها واقترب من المطار، الأسبوع الذي قضاه لن ينساه، تمنى لو مكث أكثر من ذلك، ربما زار كل الكنائس والمتاحف، ولربما تأمل أكثر عن قرب لوحات الفنانين الإيطاليين الرائعة والخالدة، فاللوحة كالإنسان الحي لا تستبين جمالها

من نظرة واحدة، النظرات المتكررة تجعل اللوحات تهديك بعض أسرارها، ولو كان تجول في كل مدن إيطاليا، لكن الذي ينتظره في القاهرة يمكن أن يجعله يتخلى عن كل العالم من أجله.

هذه اللحظات ليست أشد وطأ من لحظات مغادرة أرض الوطن، هنا لم يودعه أحد، كان خروجا معتادا، لم تذرف دموع، لكن مغادرة الأوطان كانسلاخ الروح من الأجساد، شعور حارق جدا.

تقترب التاكسي من المطار الدولي، بينما بدأت حركة السير تبدو غير عادية بل بطيئة، ومع الاقتراب من المطار تصطف كثير من السيارات وراء بعضها البعض، وتتقلص المسافة بينها شيئا فشيئا حتى تتوقف فجأة، ثم تتحرك مرة أخرى ببطء، ما يؤكد أن هناك عائقا يؤثر في حركة المرور.

سأل عمـــار السائق عن سبب هذا الازدحام المفاجئ، فأخبره أن هناك إجراءات جديدة بدأت اليوم تقوم بمراقبة المغادرين والقادمين من مختلف دول العالم، إذ يقوم رجال الأمن مع الأطباء بقياس حرارة الجسم ومنع كل من يثبتون أو يشكون في حالته الصحية، ويحجزونه في المستشفيات العامة حتى لا ينقل العدوى إلى غيرهم.

هذه الإجراءات جديدة لكنها لا تطبق بصرامة، فالسلطات تظن نفسها بعيدة عن هذا الهراء الذي يعيشه العالم عامة والصين خاصة، الحالات التي تكتشف قليلة جدا، بين خمس حالات إلى عشرة كل يوم في ستين مليون نسمة هي نسبة لا تذكر، فالناس تموت بغير الكورونا أكثر من هذه الأعداد.

يتذكر عمار سائق التاكسي الذي أخذه في وهران إلى المطار، أخبره أن الكورونا هراء تبثه وسائل الإعلام المغرضة، وأن أخاه الطبيب أكد

له أنها مؤامرة كبرى اخترعتها الماسونية كي تسيطر على العالم حتى تحطم الدول سياسيا واقتصاديا وعسكريا حتى يصبح الناس خاضعين لحكم واحد ورجل واحد وإلغاء جميع الأديان والمذاهب، ومن أجل اللادين واللاخلاق، وإنما هذه بالونة تنفخها الأبواق هنا وهناك، غايتها توقيف حراك الشعوب وثوراتهم والمظاهرات السياسية التي تطالب بتغيير أنظمة الحكم في العالم، أو في غيرها بالإصلاح والتجديد، يؤكد السائق يميناً أن الكورونا هي الأكذوبة العالمية الكبرى، وكل ما يقوله الخبراء هو مجرد افتراء على الطب، لا فيروس ولا أي شيء آخر، إنها أمراض أخرى كارتفاع السكر أو ارتفاع ضغط الدم أو انفلونزا موسمية تسجل على أنها مرض الكورونا، هناك كثير من الناس من أكد له ذلك...!

لم يكن لعمار أن يعترض على كلامه، لا يمكن إقناع سائق التاكسي برحلة مدتها أقل من نصف ساعة، لا يمكن إقناع بعض الناس ولو بألف دليل مدة ألف ساعة، يكتفي بهزّ رأسه وبضحكات قصيرة كلما تطلع له السائق ملتفتا إليه.

لكن كل مرة يستفسره:

- هل كل العالم اتفق على ذلك؟

بينما السائق يجيبه إجابة الخبير والواثق من نفسه:

- نعم... كل العالم، حتى روسيا وأمريكا اللذان لا يتفقان.

المطار في وهران إلى الآن لم يقم بالاجراءات التي يقوم بها مطار روما، إذ يتحرك الناس بحرية تامة إلى حيث يريدون، في إشارة على أن المرض لم يتقدم إليها بعد وأملا ألا يتقدم أبدا.

إغلاق البلاد يحتاج إلى عدد مهول من الموتى حتى يعطى للدولة سببا مقنعا أن يغلقوا البلاد، وليكون حجة على الشعب حتى يرضخوا للحجر والحظر، ويتمكن الخوف من أداء دور القانون، إلا أن الأعداد الحالية غير مقنعة للشعب ولا للسلطات، حتى الأرواح تختلف في قيمتها.

تمكّن عمار من الخروج من وهران في ظروف استثنائية بدون إجراءات خاصة، ويتمنى الخروج من إيطاليا بدون إجراءات خاصة، بيد أن هذه المحاولة تختلف عن الأولى...

يضيف سائق التاكسي مبديا ثقافة لا بأس بها:

- يذيعون في وسائل الإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي أن الصنيين هم مصدر الوباء وسببه كذلك، يا أخي الصينيون يأكلون كل شيء يتحرك، حتى الأجنة البشرية والضفادع الحية والأفاعي والديدان والفئران والجرذان والخفافيش... يع.. يع.. يقولون أن الكورونا مصدرها الخفافيش وهم يأكلون أكثر منها غرابة... لو رأيت يا صديقي حفلاتهم وكنت بينهم لأصبت بالقيء والإغماء، ربما شاهدتهم في الانترنت ولكنك لن تصدق ذلك إلا إذا حضرت مباشرة طريقة أكلهم! كأنهم ليسوا بشرا، تخاف أن يلتهموك حيا، رغم أنهم يقولون أنها تقاليدهم لكن هذه التقاليد مقززة، ليست كل التقاليد يجب أن تبقى، كما للحرية حدود فكذلك للتقاليد حدود حتى لا تؤذي غيرك وتتسبب في رعب البشرية كلها.

توقف من حديثه قليلا، ثم أكمل:

- يا صديقي ليس كل شيء يؤكل حتى ولو سمحت ديانتهم وشرائعهم وصمدت بطونهم وتقبلت ذلك عقولهم وقلوبهم... انظر

نحن المسلمون طاهروا البطون والأجساد والعقول والقلوب، ديننا الإسلام دين نظافة ونقاء، لا يسمح بحرية مطلقة...

بينما السائق يهذي دون توقف، يتذكر عمار كلمات مراد عندما تسامر معه ذات ليلة عن وجع الرحيل عن مدينة وهران، عن شعور عميق أليم جدا، أشبه بالخيانة للوطن، مغادرة المكان الذي ولدنا فيه ولعبنا فيه، المكان الذي ألفناه وتجولنا في أزقته، ضحكنا وبكينا فيه، جرحنا فيه وتداوينا، التحمت أرواحنا بأمكنة ليس سهلا مفارقتها ولا يمكن نسيانها، لابد أن يكون هناك سبب قوي شديد القوة يسحبنا من بيوتنا ليضعنا في مواجهة أقدرانا هربا، شبيه بالانتحار من أجل حياة أخرى وراء البحر، نعلم في قرارة أنفسنا أننا سنفقد أشياء منا، أجزاءً منا، مجرد التفكير في الأم قاتل، مجرد التفكير في الأب قاتل، لكن الأمنيات التي يصنعها الأصدقاء وراء البحر تدفعنا إلى أن نفكر في الهجرة لنعود أكثر قوة وأكثر منفعة لأهلنا، نشتري لهم القصور، ونفتح مشاريعنا، نتزوج بفتيات أحلامنا، لكن أن تعيش كأنك لا شيء هو الموت بعينه، ولو في وطنك، يختفي الوطن حينها.

بصوت ثقيل يتكلم مراد:

- غامرتُ بكل المال الذي لدي، وبالشجاعة التي عندي هاجرت، من أجل إجراء عملية جراحية لأمي والتي رفضت رحيلي، رغم أن الرحيل كان من أجلها، من أجل علاجها بالخارج من السرطان، ذلك العدو الذي لم يمهلني حتى أتمكن من تحقيق أمنيتي، كان سريعا في خبثه ومباغتا في قتله، وكنت بطيئا في ردة فعلي...

لا يعني مغادرة الوطن والاتجاه إلى أوربا بداية تحقيق الأحلام مباشرة، دون كفاح، بل هو بداية كفاح مرير، لأنه سيعارضك القدر في كل

ركن من الأركان، إذا لم يكن معارضا لك بالأساس... إن الصبر الذي أبديته هنا في بلد الغربة أضعاف الصبر الذي كنت سأتكبده في وهران.

رفع رأسه إلى عمـــــار...

– ها أنت تأتي غير هارب، تأتي بدون خوف، تأتي بجواز سفر، سائحا تحمل كرامتك وثقافتك، تودع أهلك دون دموع حارقة، دون أن تشعر بالخيانة للوطن، والأجمل من كل ذلك، تأتي من أجل الحبّ.

بالنسبة لعمـــــار، حقيقة ما أخبره صديقه مراد... يبدو الوجع متقاربا، مغادرة الوطن مؤلمة، رغم أنها ضرورية أحيانا، بعض الألم يصنع الأبطال، لكنه يغادر حباً من أجل حبٍ آخر، في ظروف أخطر، أسفاره السابقة لم تكن مؤلمة كهذه، كانت قصيرة جدا، إذ شارك في بعض الملتقيات في مصر، وفي المغرب، وفي فرنسا... شعور الابتعاد كان ألطف.

يجعلنا السفر نتذوق حلاوة الدنيا ورحابتها، لأننا نتلمس الاختلاف في الأشخاص والأزقة والأشياء والأنفاس والحكايات وحتى الأتربة... نستشعر جمال الحياة، وتتفتح أذهاننا، وتتحرر أفكارنا، وتكتشف قلوبنا أنه يمكنها أن ترقّ وتبتسم... وبين السفر والغربة إحساس واحد يصنع الفارق، يتسبب فيه شخص ما أو حادث ما، يكون الأمر بسيطا أشدّ البساطة، بنظرة حاقدة أو كلمة قاسية تفرز نتيجة وخيمة، انكسار أو جرح لا يبرئ لزمن مديد... إنها الغربة!

بعد أن أتم تحضير أشيائه، وتأهّب للسفر... نظرت إليه أخته نسرين نظرة حزينة في محاولة أخيرة يائسة لصده عن الافتراق أو على الأقل تأجيله:

– ألا تعلم أن رسول الله قد منع دخول أرض الوباء ولا الخروج

منها؟

- يا أختي... لم يبق على الرحلة سوى ساعتان، من الأحسن أن أغادر الآن، لا أريدها أن تفوتني.

- لا تقلق... تأكد أن الرحلة ستتأخر ساعات كالعادة في بلادنا.

شاعرة باليأس من إيقافه مهما تكلمت، ما يصبو إليه أقوى من حججها، أكملت:

- سأشتاق إليك يا عمّار!

في نهاية جملتها، انهمرتْ الدموع على خدها انهمار المياه المتدفقة على واد عطشان، تجمد في مكانه وغابت عنه الكلمات وقلبه يمتلئ حزنا...

لم يلبث إلا وقد عانقها عناقا شديدا، وكأنه الوداع الأخير، كانت علاقتهما أكثر من أخوة...

جعل العناق تعويضا عن الكلمات التي علقت في حناجرنا، العناق يختزل الحنين، سيغادرها إلى إيطاليا بعدما كان ينوي سابقا الذهاب إلى مصر، لكن شاءت الظروف أن تتوقف الرحلات بين الجزائر ومصر، بعد تخوّف كلا البلدين من انتشار وباء كورونا، حيث تأكد أن آخر رحلة إلى مصر استثناء ستنطلق من روما بعد أسبوع، وعليه أن يكون هناك حتى يلتحق بوجهته، وهي القاهرة.

لا يعلم سبب سفره أحد إلا أخته نسرين التي يعتبرها صديقته التي لا يخفي عنها سرا، بل يعتبرها مستشارته المقربة الوحيدة.

أخبرها في ساعة صفاء أنه وقع في الحب حيث لم يكن يتوقع، وقع في حب مجنون جعله يكسر كل القواعد المنطقية، بعد ثلاث وثلاثين سنة من العزوبية، يريد التحوّل رأسا على عقب إلى حياة استشعر جمالها

قبل أن يبدأها، بل يتجرأ أن يطير من آخر الدنيا إلى أم الدنيا، ويخطف سعيدة وغريبة الحظ كذلك المسماة نور، التي تنتظره بلا صبر بل تقبل العيش معه حتى ولو في كوكب غير الأرض.

الحب أسطورة يونانية، أبطالها أنصاف آلهة لا يعترفون بالزمان، ولا يكترثون بالمكان...

أمام توقف كل الاتصالات هناك أمل في العثور عليها من خلال العنوان الذي بعثت به إليه، هو بصيص الأمل الوحيد في العثور على إبرة في كومة قش...

يعترض سيارة الأجرة حاجز أمني مستحدث في المدخل الرئيسي لمطار روما، ويظهر له أن رجال الأمن وأطباء بزي أبيض خاص يغطي كل أجسامهم إلا عيونهم، يوقفون السيارات الواحدة تلو الأخرى، ثم يدخلون أيديهم المغلفة داخلها واضعين شبه مسدس صغير على جباه الركاب هو جهاز قياس درجة الحرارة، ثم ينتقلون إلى السيارة التي تليها...

خاطب الطبيب عمار:

– سيدي، نحن نقيس درجة حرارة المسافرين، إجراء جديد من أجل سلامة الجميع.

وضع الطبيب آلة قياس الحرارة التي تشبه المسدس الصغير على جبهة عمار، نظر إلى الأرقام التي على المسدس، ثم أعاد الكرّة موجها المسدس الطبي إلى جبهته، ثم التفت إلى رجلي الأمن الواقفين وراءه متحدثا إليهما بصوت مهموس، ثم اقترب الشرطيان منه وطلبا منه أن ينزل من السيارة.

تساءل عمار وقد شعر بالتوتر:

– ماذا هناك سيدي؟ لماذا أنزلتموني؟ هل أنا مصاب بالفيروس، أيها الطبيب؟

أجابه الطبيب، وهو يتراجع خطوات مبتعدا عنه خوفا من العدوى:

– لا تقلق سيدي، لكن حرارتك غير طبيعية، لا يمكن أن نسمح لك أن تسافر بهذه الحالة، يجب أن تأتي معنا إلى عيادة التحاليل لنتأكد من إصابتك أو عدمها.

– هذا غير مقبول... لا يمكنكم أن تمنعوني من هذه الرحلة... أسبوع من الانتظار ثم تمنعونني بسهولة...!!

ردّ عليه أحد رجال الشرطة بحدّة:

– لا تقلق يا سيدي، سلامتك أولى من السفر... تفضل معنا بدون غضب... من فضلك.

شعر عمار أنه وقع في أسوأ التوقعات التي لم يفكر فيها، وكأنّ مؤامرة تحاك ضده، كيف يمنع من سفره ولقائه، فقبل ساعات من الطيران إلى حبيبته يحبس عن التقدم، يُحتجز لأنه مشتبه في إصابته بالفيروس، لكنه لا يشعر بأي شيء، لا حمى ولا آلام ولا أي أعراض أخرى، بينما يصرّ الطبيب أنه مشتبه به.

يتنهّد رافعاً رأسه الى السّماء:

– أي أقدار سيئة هذه التي تعترضني؟

الطائرة ستقلع بعد ساعة، والتأكد من حالته في المختبر يتطلب وقتا أكبر، وبينما يسمع هذا الكلام يتوتر... يقف ثم يجلس ثم يقف

ثم يتجول في غرفة العيادة، ذهابا وإيابا بعد أن أخذوا عينة من دمه، ينتظر نتيجة التحليل في وقت لم يفكّر أن يحدث له ما يجري الآن، لم يفكر أن يكون مصيره هكذا في سجن طبي، أن يفقد رحلته، أن يُؤسر بسبب الكورونا التي ظنها دائما بعيدة عنه، لأنه كان حريصا دائما على سلامته، يتبع بحرص إجراءات الوقاية التي تملأ إعلانات الإعلام الإيطالي ومواقع التواصل وكل المرافق، فجأة يتذكر كلام حبيبته نور أن المكتوب على الجبين لا تمحيه اليدين، هو يعلم ذلك لكنّه يصرّ على أن الأقدار تصنعها إرادتنا ورغبتنا وحبنا، هي تدرك إصراره وحبه، وهو يدرك غايتها من هذا الكلام، بأنها تنبهه أن كل شيء غير مستبعد في هذه الحياة، وهو يخبرها أن الحبّ طالما هو موجود يمكن أن يتجاوز به كل الظروف...

في لحظات الانتظار الأقسى على الإطلاق، التي فقد فيها قدرته على فعل شيء ما، وهو مراقب من رجال الأمن وقد احتجزت وثائقه كلها، متحفظين عليه، لا يستطيع الهرب، ولا الاعتراض على شيء وهو في قبضتهم كالمجرم.

– ما العمل إذا كانت النتائج إيجابية؟!

سيُحتجز أياما أخرى، طويلة ومؤلمة، سيتذوق ألم الفيروس وألم البعاد وألم الغربة وربما حتى الموت هنا.

– وأيُّ ألم سأصبر عليه؟!

إذا كانت النتائج سلبية سينتهي الكابوس، وتثبت براءته من المرض، ويطير في رحلة لاحقة توصله إلى مصر، رغم المشقة والتكاليف يبقى الحلم قائما ما دام في القلب نبض وفي الحياة أمل...!

العيادة تكاد تكون فارغة، وكأنه لا يوجد غيره وسائق سيارة الأجرة

في الغرفة المجاورة، الذي أصابه الذعر عندما أُخِذ من سيارته أيضا، وهو يصيح في وجه عمار متهما إياه أنه هو من جلب المرض من بلاده.

– سيدي آسف.. النتائج إيجابية، يجب أن تُعزل حتى لا تصيب غيرك، يمكن أن تتجاوز المرض إذا تماسكت واتبعت التعليمات.

نزلت كلمات الطبيب كالصاعقة على رأسه، تؤكد إصابته، وعليه أن يعزل كما كانت البندقية قديما تعزل الوافدين إليها قبل أن يدخلوا إليها...

البندقية تتشبث به، تريد أن تقص عليه بقية الحكاية... أو أن ماتيا لا تريد له أن يرحل...

شعر أنه سقط في الفخ كسقوط العصفور المهاجر، يتخبّط في مكانه إما أن يشفى من جراحه ويطير إلى سمائه، وإما أن ينغمس في آلامه ويموت...

يتأجل اللقاء أو يلغى استجابة للمكتوب الذي طالما أخبرته به نور، كأنها الآن تنظر إليه تخفّف عنه هذه الصدمات، كأنها بدأت الاستشراف للمأساة.

اللوحة ترفض أن تتشكل، أو أنّها تتشكل بألوان باهتة وأشكال قبيحة، اللوحة غامضة في بدايتها لا تتكشف ملامحها، لا تحدد وجهاتها، لا يكتمل نقصانها، ولا تتجلى صورها الصغيرة، إلا بعد زمن معين، كل الصور الرائعة تأبى أن تتعرى من أول مرة، تحتاج إلى كثير من المشاعر المتناقضة، من وقوف من جانب إلى التحول إلى الجانب الآخر، نبتعد ثم نقترب، نرسم نصف خطوط، وبقع هنا وهناك... لا يتقن الرسم على البياض إلا من رقّتْ مشاعره، وتمكنت أنامله ونفث بعض أنفاسه وبعض شخصيته وكأنه ينفخ روحه فيها... الصورة الكبيرة هي

مجموعة من الصور الصغيرة، اللوحة الجميلة مجموعة من اللمحات واللطخات والأشكال والألوان، الرقصة الجميلة التي تؤديها ماتيا دائما هي مجموعة من اللقطات والحركات، والقطعة الموسيقية مجموعة من النغمات والنوتات، والحياة جمعت كل ذلك...

يتذكر قصة الملك المبتور القدم والساق، كيف أن الرسّام المتفائل الذي استحق مكافأة الملك رسمه سليم الجسد من خلال استعمال جهة مناسبة ووضع مناسب لا تظهر لا عينه اليمنى المفقودة ولا رجله اليسرى المبتورة، فقد وضعه على ظهر حصان كفارس مغوار، يسدّد سهمه، كما يفعل الصياد الماهر دون أن تظهر إعاقة ما، بل ظهر بما يحبه كفارس مغوار، واستحق جائزة الملك واحترام وتقدير الجميع، لأنه زرع الأمل في حياته.

تماما كما الحياة يمكن رسمها بالوجه الذي نريد أن نراه، أو نعتقده...

تمضي الليلة الأولى في المستشفى أطول من ذي قبل، ليلة بطول ألف ليلة لكنها حبلى بالكوابيس المزعجة التي لم يألفها... أجرى اتصالا بمـــراد أكثر من مرة دون جدوى، أرسل له رسالة يخبره بمكانه ومنعه من المغادرة والاشتباه بإصابته بالوباء ولم يبلغ أخته فهي لا تحتمل مثل هذه الأخبار فإصابتها بالضغط مع مثل هذا الخبر يمكن أن تودي بها إلى العالم الآخر...

قضى ليله يفتش في ذاكرته عن مصدر العدوى، عن الشخص الذي نقل له المرض، هو يعرف أنه من المستحيل أن يكتشف ذلك في أي مكان، هل يكون قد جاء به من وهران أم التقطه في البندقية؟ يستحيل أن تعرف الشخص المعدي ولا الشيء المعدي لا يمكن تحديد ذلك، يكون العدو خطيرا جدا إذا كان خفيا تماما، المكتوب أدى دوره الكامل

وأثبت حقيقته رغم حرصه الشديد، بعد الكم الهائل من الناس الذين صادفهم خلال زيارته للمتاحف والكنائس والمقاهي، كان الناس طيبين بشكل ينقل كل الأمراض، كان العناق ملقى في كل زاوية من أزقة البندقية...

في اليوم التالي فتح عليه الباب، وتقدم إليه رجل وامرأة، كلاهما مقنّع واضعين كمامة تكاد تغطي كل الوجه ولا يرى منهما شيئا، حتى العيون تختفي وراء نظارات شمسية خوفا من العدوى، نزعت المرأة النظارات وإذا بها ماتيا تذرف الدموع، فاحتار كيف عرفت بأمره وهو الذي لم يخبرها بشيء.

تتقدم ماتيا وهي تبكي ثم تمسح دموعها بمنديل تسحبه من جيب قميصها مطأطئة رأسها:

– ما هي حالتك الآن..؟

– لا أشعر بشيء... لا شيء... لا أدري لما أُحتجز هنا، كأني مجرم.

تدخّل الطبيب:

– هذا في مصلحتك ومصلحة غيرك، نتمنى أن تبقى حالتك مستقرة هكذا لمدة أربعة عشر يوما على الأقل، على كلٍ سأترككم مع بعض قليلا مع توخي الحذر، أرجوكما لا تقتربا من بعضٍ.

كلمات الطبيب قاتلة، حينما أخبر ماتيا أن يبتعدا وهي تريد الاقتراب رغم تهديد العدوى، الموت في قربه حياة بالنسبة لها، والابتعاد عنه موت مؤكد، موت كاد أن يحدث لولا القدر.

جلستْ في الكرسي المقابل لسريره، لم تبتعد كما يجب خوفا من العدوى ولكنها مجبرة أن تستجيب لتعليمات الطبيب حتى لا يمنعها

زيارته مرة أخرى، تريد الاقتراب أكثر مما سمح لها، ولكن...

وبنبرة حزينة هادئة، قالت له:

– كنتُ غبية عندما لم أكتشف تلميح الوداع، لوحتك الرائعة التي أبهرت كل من رآها، وتمنوا لقاءك والتعرف عليك، كأنهم أول مرة ينظرون إلى رقصي... أظنّك تستغرب كيف عثرتُ عليك، إنه هاتف صديقك مـــراد كان عندي واطلعت على الرسالة، وجئت أريد مساعدتك إذا أردت.

– لماذا لم يأت مـــراد؟!

– للأسف أصابته الكورونا هو كذلك، وأنا لا أدري، ولم ألتقه، باستثناء الهاتف الذي أرسله إليّ أحد أصدقائه، لكن حالته أسوأ منك حسبهم، لم أتمكن من رؤيته، ولا معرفة مكانه، لذلك منعوا عنه كل شيء!

زاد توتره:

– يا إلهي، يبدو أن الأمور تسوء يوما بعد يوم...

ثم تأمّل عينيها!!

– ما هذه الدموع...؟!

دموع غزيرة تتوزع بينه وبين مراد، أم أنها له فقط؟

تكون الدموع تنفيسا من أجل تعاطف الحبيب...

لم تجب عن سؤاله، تركته يبحث عن إجابة من خياله الواسع...

أيمكن نثر الدموع بدون مشاعر؟!

وما هي... إن وُجِدتْ؟!

أشفقة أم مجرّد تعلق؟!

أهناك أشخاص يبحثون وراء كل إنسان عن حب مفقود دون شروط؟

يبحثون عن حب ممزوج بالعذاب، أو ألم يسمونه حبّا، وعذاب لا نهاية له.

أصبحتْ ضحية الحبّ غير المشروط، وارتمت في عذابٍ محققٍ...

- قيل لي أنّكَ كنت متوجها إلى مصر؟

- أي نعم..

- مهما يكن ما أنت عازم عليه، كنتُ أظنّك ستودّعني تصريحا لا لبس فيه قبل المغادرة، كان ذلك لا يكلّفك شيئا.

- بعض الأشياء لا تمهلك الوقت، ولا حتى التفكير.

- كان هروبا.

دائما يعتبر الوقت تبريرا غير مقبول لأكاذيبنا...

أكمل:

- لا تسترسلي في الاتهامات، فأنا لم أهرب منك، كنت عابر سبيل.

- أنا لست كورونا... أنا إنسان وجد فيك بعضاً منه...!!

جوابها الأخير فاجأه أيما مفاجأة، جملة كدويّ انفجار هائل، لم تترك له المجال أن يرد، ربما الشيء الذي هرب منه يلاقيه الآن.

انصرفت بعد هذه الجملة... ربما لأنها لا تنتظر رده الذي سيكون

أكثر ضررا على قلبها النازف، ولم يكن يشعر أنه يجب أن يبرر كل شيء لها.

لو قال لها سبب مخاطرته هذه سيتسبب في موتها، سيخاف عليها من صدمة قاتلة، لأنه تأكد من تعلقها به، وربما جنونها.

سيتمهل، لأن إحداث الضرر ليس محبذا بالنسبة له، طالما هناك مساحة للمناورة، وطالما هو محاصر بفخين، كورونا وحب ماتيا...

سيطول اليوم أكثر من السابق، وسيتمدّد الليل ويحشو عتمته بالكوابيس، والمرض الذي ينمو في داخل عمار دون أن يشعر به، شيئا فشيئا يتربص به في ليلة ما، حتى ينقض عليه... بدأ القلق يساوره، كيف سيستقبل هذا القادم غير المرحب به؟

كيف سيجعله ضعيفا مهزوما؟! أم أنه سيقاوم هجماته ولعناته من أجلها؟

كل صباح تقدّم له الممرضة، وهي تضع كمامة تغطي وجهها إلا عينيها، مجموعة من مواد التعقيم، تراقب يوميا حرارته التي تتصاعد من يوم لآخر وتحقنه ببعض الحقن... أصبح المشهد مؤكدا، حزينا، مُرْبِكاً، قاتماً، ولا أحد يتفقّده.

لم تنفعه شبكة الانترنت ولا البحث فيها ولا مواقع التواصل... عندما يرتبك الإنسان ويمرض لا تجدي كل الملهيات، حتى أدوات الرسم التي يحملها تأبى أن تنجز مهمتها، الرسم بألم خطير على صحته، وكذلك على صحة المتأمل في لوحاته، سينقل له العدوى من خلال اللوحة كما الفيروس.

رسْمُ الحزن حقيقة يحتاج إلى حزن أعمق أو إلى تعاطف وتمازج مع

أحاسيس الحزن العميقة، فيتراكم على بعضه محدثا مأساته على النفس وعلى الجسد.

كل اللوحات الحزينة التي يراها الإنسان تبعث فيه بعض ذبذباتها، بعضا مما فيها من رائحة ونكهة وكثير من الخيبات.

بدأت الحمى تلتهب وتغزو جسمه حتى تعرّق، يرتعد كتلة واحدة من رأسه حتى أخمص قدميه مع سعال حادٍ ومتصاعد كأنه شفرات سكاكين تحزّ داخل صدره ذهابا وإيابا...

ينقطع الإنسان عن التفكير في غير صحته عندما يشعر بالموت يحوم حوله، يغيب عن وعيه بالعالم الذي يحيط به، عن زيارات ماتيا المتكررة حيث تشاركه بالدموع الحارة من وراء الفاصل الزجاجي...

يخشى أن يموت في هذا المكان حيث يتوقف كل شيء، وينقطع كل شيء، أصبح في مرمى موت وشيك، دون علمها ودون علم نسرين التي تحترق حيرة عليه وهماً به.

بدأ الإحساس بدرجة حرارة رأسه ترتفع وتستمر في الارتفاع يوما بعد يوم، لتعمّ جسمه كلّه، صارت جبهته كفوهة بركان تسيل حمما، ثم أخذ السعال يتزايد مع آلام حادة في صدره وجميع مفاصل جسده، احمرّتْ عيناه، وامتد الألم إلى أصابع يديه وقدميه، يحاول أن يستنشق الهواء فلا يستطيع، يتلوّى يحاول التقلّب، لا يستطيع... يشعر أن الموت يسحبه إلى ظلماته، كلما حاول أن يسحب إلى رئتيه الهواء بصعوبة بالغة، يتعسّر تنفسه أكثر، يكاد ينقطع لولا تدخل الأطباء بجهاز يساعده على التنفس اصطناعيا، يتنفس ببطء، يحاول الهروب من الموت، ينام بصعوبة، أصبح النوم كالموت...

بعد أيام من العلاج استفاق ذات صباح ليخبره الطبيب أنه تحسن

كثيرا، وأن جسمه يستجيب إيجابيا للمضادات الحيوية وللأدوية، وأن العلاج يظهر نجاعته يوما بعد يوم، وأن مرحلة الخطر سيجتازها بنجاح قريبا إذا استمر في مقاومته للمرض...

يفكّر في كلام الطبيب دون أن ينبس ببنة شفة:

- أيّ حظٍ أنا فيه يا دكتور؟

التفت الطبيب وكأنه سمعه...

- أنت محظوظ حين وجدت من يعتني بك.

بينما يتعافى تدريجيا يكثر المارة والوافدون الجدد، يتصاعد الكلام وبعض الصراخ في الغرف المجاورة، إذ أكد له الطبيب أن الحالات في ازدياد في البلاد، وأن الأمر أصبح أكثر خطورة من ذي قبل، وأن كل الرحلات قد توقفت في العالم لأجل غير معلوم!

أحسّ بتحسن تام، وأن القدر أنقذه من مصير كان يخشاه، لكن ما زال في سجن كبير اسمه مدينة البندقية.

يعود أدراجه بعد أن أخبرته ماتيا أن مراد توفي بسبب الكورونا.

الفصل (٣)

... وتتقاطع الأحزان

عاد إلى البندقية حزينا منتكسا، مرتدٍ كمامته برفقة ماتيا، تختلط المشاعر لديها بين حزن وفرح، حزن بفقد مراد والضيق الذي أحدثته الكورونا، وفرح بعودة عمار، فرح تخاف أن تظهره لعمار...

حينما تختلط كل هذه المشاعر، تكون على حافة الجنون...

تنتظر ماتيا عمار كل صباح عند باب المنزل الذي تركه مراد، لم تجرؤ على اقتحام المنزل وهو فيه، كان دائما يمنعها من ذلك، هو يعلم لماذا وهي كذلك لكنها تتجاهل...

غادرها مراد لكنه أحدث شيئا رائعا قبل أن يموت، إذ عرفها بعمـــار الإنسان الذي غير حياتها إلى الأبد... هنا ازداد فرحها المكتوم، وتفكر كيف يجب أن تسعده وتقربه إليها، كيف تفتح قلبه إليها، وكيف تكسب حبّه، بكل الطرق الممكنة، ذهبت معه إلى المقبرة حيث تقبع روح صديقه مـــراد، لتنثر دموعها مع صلوات الرحمة، ويرجع إليها منهكا بالحزن متعب الملامح، ومن لقاء لم يستغل أيامه في الأنس به كما تستحق صداقته والوفاء له.

عندما يموت من نحبّهم نتذكّر أنهم كانوا أحياء...

تحاول ماتيا أن تتجاهل أسباب رغبته في السفر إلى مصر، سفر أشبه بالهروب، لكنها تتغاضى في سبيل استغلال دفء اللحظة برفقته، بعد رحيل مراد صار التشبث به أكبر إلحاحا...

بعد ثلاثة أيام طويلة جدا، وفي أحد الليالي تستضيفه ماتيا في أحد المقاهي الفاخرة في قلب المدينة، تريد أن تعرفه على بعض أصدقاء مـــراد وأصدقائها أيضا...

ارتدى قميصه الأنيق، وحذاءه الكلاسيكي، مشط لحيته الكثة، وضّب نفسه كما ينبغي أن يفعل دائما في مواعيده في الخارج، نزل من الدرج، أهداها ابتسامة خفيفة، تمنّتْ ماتيا أن تكون قبلة خفيفة، سعادة خفية تغمرها عندما تكاد تتلامس ذبذبات أجسداهما أثناء سيرهما بجانب بعض، لم تكن هناك حاجة للذهاب بالجندول لقرب المسافة، لكنها تتخذ أزقة أبعد ليطول الكلام.

أصدقاء مـــــراد، هم طبيب سوري لاجئ اسمه باسم، وشاب ليبي مهاجر بطريقة غير شرعية يُدعى كريم ومسنٍّ إيطالي يلقب بأوبالدو، ينتظرونه في مقهى يعج بالناس... وعلى كلٍ بالنسبة له التعرّف على أشخاص جدد شيء لا بدّ منه مع انسداد سبلِ الخروج من إيطاليا.

باسم رجل في الخمسينات من العمر، يكسو الشيب رأسه كله، يرتدي كمامة زرقاء تغطي الأنف والفم، وقفازات بلاستيكية بيضاء في كلتا يديه ولا يظهر منه إلا عيون دقيقة متشبّعة بالغربة، والشاب كريم أصلع الرأس، نحيف الجسم، أسمر البشرة، شديد السمرة، طلق الوجه، أما صديقهما الإيطالي أوبالدو فشيخ في الخمسينات من عمره، ممتلئ الجسم، سمين حيث تتقدم بطنه جسمه، يرتدي لباسا صيفيا رغم الجو البارد، يتنفس السجائر دون توقف، يُطلق قهقات صاخبة تطغى على كل الباقين، لا يكاد يكمل جملة إلا وأطلق بعدها ضحكة خبيثة طويلة، يقول أنه يعشق الفن والجمال والحبّ والنساء، وأن الأنثى هي التي تعطي للحياة جمالها، فلولا النساء لما كان لها طعم،

والزواج ورطة لابد ألاّ يقع فيها الإنسان، والذي يقع فيها غبي جدا، الزواج للرجل والمرأة تحطيم للحبّ.

من خلال حديثه المتواصل يحاول أن يبرّر علاقاته الكثيرة مع النساء، يرى أن المرأة هي مصدر الجمال، وسر الجمال في الكون كله، ثم في كل مرة يقهقه ويرتشف من كأس الجعة الذي لا يفارق أطراف أصابعه، ثم ينحني إلى ماتيا في كل مرة...

- أليس كذلك آنستي...؟

ترد عليه ماتيا بابتسامة ساخرة، فيها كثير من الرفض الواضح وكثير من الملامح المناقضة لكلامه، وخلال كل كذلك، تترقّب خفية ردّات فعل عمار، والتي لم تكن إلا ضحكات هستيرية لا معنى لها، ترتفع كل ما ألقى أوبالدو نكتة ما، فعمار لم يعترض على هلوساته المجنونة، عن عشقه لفتيات الليل، وفي نفس الوقت يعلم عمار أن ماتيا تتربص به، وتتربّص بكل حرف ينطق به، تحاول أن تعرفه أكثر... أوبالدو ذواق للفن عاشق له، يقول إن إيطاليا بلاد الفن والرومانسية وبلاد الموضة، هنا تجد العالم مجتمعا بكل تناقضاته، وهنا تجد الكوارث بأنواعها، ولا يلبث أن ينفجر ضاحكا حتى تفوح رائحته النتنة من فمه الكبير...

كانت نظرات أوبالدو خبيثة اتجاه ماتيا، يراها تشعّ نظارة ورشاقة، وهو يتّقد حرارة ونشاطا رغم كبره، وقد لعِب الخمر برأسه، فازداد هلوسة وجنونا ومجونا.

لم يوقف الضحكات الصاخبة إلا كلام باسم الذي نشر تدخله هالة من الحزن في المكان، وجعل أوبالدو يستنشق سيجارته لفترة أطول من المرات السابقة وهو ينظر إليه، وصار عمار يبتلع الكأس دفعة واحدة

مستشعرا الألم الذي ترسله الكلمات، بينما ماتيا تبدي اهتماما أكثر من ذي قبل حتى رقرقت عيناها، وتوقف كريم عن الضحك، التفت باسم إلى عمار وقد نزع الكمامة من على وجهه ليظهر شارب أبيض يكمل صورة الوجه البيضاء دون نقطة سوداء واحدة...

- بالرغم من حجم الضحك الذي نبديه تختفي وراء كل واحد منا مأساة ما، وربما المأساة هي سبب الضحك، عندما تتجاوز حدود الحزن والألم والبكاء، بل تتجاوز اليأس بمراحل، تصبح الحياة بالنسبة لك أضحوكة قبيحة، لا تستحق إلا الاستهتار، أنا قدمتُ من سوريا وكأني هربتُ من جحيم...

ارتشف الباقي من كأسه قليلا ثم أكمل:

- أن تهرب من الجحيم بدون أولادك وأهلك، تتركهم عرضة لكل سوء، ليس الأمر سهلا، فررتُ من معالجة الجرحى تحت التهديد والوعيد، وفوهة البندقية مصوبة إلى رأسي، وأشارك في تعذيب الأبرياء داخل ساحات المعارك، اقتحمت عالما مجنونا ومهووسا بالقتل والتعذيب، إنه جنون يبقى عقلك يشاهده حتى يتوقف، عذاب لا وصف له ولا حد.

ثم صمت طويلا حتى أصاب المكان صمت رهيب...

- تركت زوجتي وأولادي ولا أعرف مصيرهم إلى الآن، أحياء أم أموات أو يعذبون في سجون النظام بسبب هربي، أو اختطفتهم المجموعات الخارجة عن النظام أم...؟ لا أدري...

نظر إلى عمار بتمعن...

- هناك لا تأمن أحدا حتى أخاك... لا أحد على الإطلاق!!

يسأله...

- كيف وصلت إلى إيطاليا؟

تنهّد بشدّة وقال:

- تلك قصة أخرى...

قاطعه أوبالدو يريد أن يردّ روح المرح إلى الجلسة؛

- كفانا يا صديقي نكداً... ههه، ستعود الحياة إلى بهجتها يوما، وتعود لك عائلتك حتماً، تأكد أن القضية قضية وقت فقط، حتما للحرب نهاية مهما طالت، أنظر إيطاليا، عاشت حروبا مدمرة، الآن... أنظر حولك... هناك الموسيقى والرقص والنساء...

رفع الكأس عاليا قائلا:

- والجعة كذلك... ههه.

تدخل كريم:

- الحرب قاسية يا أوبالدو، نحن لا نتكلم عن ماضٍ بعيد، نحن نتكلم عن جرح ينزف بينما نحن نتحدث، عن ألم مازالً يوجع، بيننا نحن وأنتم مسافات من الألم، أهلنا يموتون كل يوم، ونحن هربنا من الموت مجبرين واخترنا موتا من نوع آخر، أنا هربت من عائلة تشتّت إلى قسمين، قسم في بنغازي يميل إلى جانب ويراه أحقّ بالحكم، وقسم آخر في طرابلس يرى أن الحكومة تستحق الحكم بدلائل خاصة بهم وحدهم لا يعترف به الجانب الآخر، وأنا اخترت جهة ثالثة لا تقبل بكلا الطرفين، غامرت بكل ما أملك حتى لا أقتل إخوتي.

إذا قتلت نفسي في البحر غرقا، أفضل لدي ألف مرة، أنا لا أعرف

أي سكين سيذبحني، أو يطعنني، أو أي فرد من أفراد عائلتي أقتل، فررتُ من حلمي، كنت بطلا رياضيا وطنيا في العدو، كان حلمي أن أصبح بطلا إفريقيا في العدو، لكن لا شيء تحقق، أنا ضائع، بعيد عن حلمي، شبه ميت ينعتونني هناك بالجبان... وأفضل هذا اللقب عن لقب القاتل... يا أوبالدو نحن لا نهجر الأوطان بل نهجر من هم فيها.

وما لبث أن تدخل أوبالدو مرة أخرى، بمزيج من العتاب والغضب، متوجها بالكلام إلى عمار...

– نعم... صحيح... يا أصدقائي... ما جئنا هنا للبكاء، كفاكم حكايات حزينة، لنتكلم عن الموضوع الذي أود التكلم فيه... عمار اسمع لقد رأيت اللوحة التي رسمتها لماتيا إنها تحفة لا مثيل لها، لقد أبهرتني، أنت أروع مما تتصور.

صدقني أنا رأيت كثيرا من الرسومات، ولكن رسمتك دوختني، لقد ذكرتني بليوناردو دافنشي وكارل آبل وبيكاسو وفان كوخ.

ثم استنشق سيجارة بقوة نفس كبيرة مواصلا كلامه...

– يا رجل أنت موهوب جدا، في إيطاليا ستكون ثريًا إذا عرفتك من أين تؤكل الكتف.

ثم أنهى كلامه بضحكة تحاول أن تطرد كل الأحاديث التي سيطرت على الجلسة...

– لقد عرضت لوحتك على أحد الأثرياء، وعرض مبلغا ماليا معتبرا على ماتيا، لكنها رفضتْ وها أنا الآن أطلبها منها مرة أخرى مقابل ثمن جيّد، لكن بشرط أن يكون بلا توقيع.

رد عمار:

– عدم التوقيع يعني جريمة بالنسبة لي، كيف أتخلى عن أولادي؟ لا... لا يمكن.

تكلمت ماتيا بكل ثقة:

– لو أعطيتني كل ثروتك لن أبيع لك اللوحة يا أوبالدو.

انفجر كل الحضور ضحكا بمن فيهم عمار...

رد عمار:

– أعتذر... أوبالدو لا يمكنني حتى أن أرسم لوحة أخرى مثلها مرة أخرى... هناك بعض اللوحات لا تتكرر تماما كما بعض الأشخاص، تماما كمراد الذي فقدته.

عند انتهاء السهرة، وفي طريق العودة، حاولت ماتيا أن تفهم ما الذي يجعل عمار يقول أنه لا يستطيع أن يرسم لوحة أخرى، أيعني أن اللوحة مرسومة بإحساس ما قد لا يتكرر؟ أو أن الحزن على مراد أفقده طعم الفرح، أو عدم التمكن من السفر إلى مصر يخلط حساباته، أي سبب جعله يقول ذلك؟!

لكنه لا يفصح، مازال غامضا، بل اشتد غموضا، على ماتيا أن تستوضح بذكاء، أن تكتشف أسراره، في الجلسة لم يحضر فيها إلا جسمه وبعض الضحكات... مازال مصدوما.

يعتمد الفن على إحساس الإنسان، وعلى مدى تجاوبه النفسي مع ما يبدع، فالإبداع يمتاز بالعمق، والعمق يعني الصدق، والعمل الفني الصادق يتطلب قوة نفسية رهيبة لا يحس بها إلا صاحب العمل، وكلما زادت تلك القوة زادت روعة العمل وجماله، وبالتالي نجاحه...

يستطيع عمار أن يرسم أي لوحة يريد، لكن بأيّ مشاعر؟! وإلى أيّ

حد من الجمال؟!

اللوحة تتطلب إحساسا ما، بل إحساسا قويا يصنع من اللوحة عظمتها، وربما يستهلك بعض طاقته، وهذه كلّها سبب خلود الأعمال الفنية، أن تتحول الأعمال الفنية إلى موضوع للبيع والشراء، يحتمل جانبين من معنى واحد فهي من جهة محاولة لتقدير قيمة الشيء، ومن جهة أخرى كذلك تحقير لعمل عظيم ما دام يباع ويشترى ويمكن تحديد سعره!

لكن الفنان يظل إنسانا وليس ملكا مقدسا، له حاجات ونزوات وأحلام، لا يمكن فصل الجمال عن المال، حيث المال هو القيمة الوحيدة المادية في تقييم الأشياء، هي العملة التي تصنع طريقا في البحر كما يقال في الجزائر، مهما تعددت أسماؤها.

المال يشتري كل شيء حتى الإنسان في بعض الأحيان، كما قال له مراد ذات مرة!

بعد يومين تلقى عمار أمر إخلاء فوري للمنزل قدمه صاحب البيت الذي تركه مراد، وجعله عرضة للطرد، حتى الفنادق تخلي غرفها استجابة لأوامر الحكومة وتلغي كلّ الحجوزات.

أمام تضارب الأفكار الجديدة المزعجة التي تؤرق عمار، بين الحاجة والمبادئ، تكون الظروف الدافع الحاسم والعامل القوي في ترجيح كفة المال عن أي خيار آخر، ومادام السبيل الوحيد الذي يجعله يصمد في وجه هذه الظروف المفاجئة، الحاجة إلى المال، لذا عليه أن يستدعي موهبته في هذه الظروف، من أجل الحصول على ما هو عزيز الحصول عليه من طرف كثير من الناس سواء المغتربين أو المواطنين، في وقت غادر فيه كثير من السياح وكذلك الطلاب نحو بلدانهم خوفا من

تداعيات وباء كورونا، وبدأت الآثار تتجلى بعدما قلصت المصانع الكبرى من عمالها، وبدأت بتسريح الفائض من العمال، ممن يمكن الاستغناء عنهم، وتفاقم خوف الناس حيث توافدوا على المحلات التجارية من أجل شراء السلع وتخزينها لمواجهة احتمالات أسوأ، ويتجه كل شخص إلى وطنه الذي يحتضنه بلا تقديم اعتذار، فالوطن كالأم يسامحك مهما أسأت، والوطن كالحبيبة يسامحك بإسراف، والوطن قلبه واسع كالبحر يبتلع أحزانك ثم يلفظك نقيا ويعاود الكرة مرات ومرات لا يمل ولو مللت أنت.

لكن عمار يأبى العودة عن حلمه، عن حبيبته، ليس كرها في الوطن، الذي يكره وطنا يتجرد من إنسانيته والارتباط بالوطن معقّد وعميق جدا...

لكن هناك من لا يستطيع أن يغادر إلى وطنه، حيث تحول جسد هذا الوطن إلى أشلاء متناثرة، تحول إلى قطع من الآلام، ومرتع للوحوش والقتلى، وساحة يباح فيها كل شيء، لا قانون ولا أخلاق ولا آدمية، ولا حتى الدين، حتى المتدينون المزيفون يذبحون الأطفال ويقطعون الرؤوس، لا يعرفون من الدين إلا عقابه، ويلوون رقبة الدين حسب أهوائهم.

تعرّف عمار في المقهى الذي يرتاده على شاب يمني يدعى طه يعمل في غسل الأواني والتنظيف كل مساء عند نهاية العمل، ونهارا يكافح لنيل شهادة التخرج من الجامعة بعد أن عانى ليدخلها مع ويلات الرحلة، فقد خلالها أخته أشواق ذات الثماني سنوات في ليلة باردة في الطريق إلى اليونان ، فرّ من اليمن بعدما وقعت على رؤوسهم ذات ليلة مشؤومة قنبلة قضت على والديهما، قضي على أبيه في لحظتها، وماتت الأم من

نزيف حاد في أنحاء متعددة من جسدها دون أن تصلهم سيارة ما، أو طبيب يسعفهم.

الموت هناك يعمل بجد، جدول أعماله مكثف، لذلك لا يجد وقتا لأنْ يستأذن أحدا، الموت هناك لا يحتاج إلى كورونا، لا تذهب كورونا هناك، فالأسباب هناك كثيرة للموت، وأكثر قوة.. بل الكورونا أرحم!

يقول طه:

- أتعلم يا عمار أن الحرب بين أفراد الوطن الواحد مأساة ليست بعدها مأساة؟ اخترت الهروب بنفسي وأختي أشواق لكن لم يسمح القدر أن تصل معي إلى دفء هذا المكان، فماتت متجمّدة الجسم حزينة الروح، رغم أنّي حرقت كل ما أملك، وكل ما حولي لأشعرها بالدفء، لففتها بملابسي واستعملت جسمي دون جدوى، لكن برد أوربا أقوى وأقسى منّا... أصابني حزن شديد، لم أحزنه على أمي وأبي، كان هروبا فاشلا من الموت، أصبتُ بعدها بحمى كادت تقتلني، وليتها قتلتني معها...

نثر دمعتين ثقيلتين، مسحهما بسرعة محاولا إخفاءهما.. شاركه عمار دمعة من عينيه متأثرا بحكايته، مبديا ذلك في تعابير وجهه لحجم الحزن الذي يخفيه العالم، مخبرا إياه أن هذا ما يمكن مشاركته به، إنها الدموع الحارة.

ثم قال:

- آسف يا صديقي طه، جوهر المسألة هو طرح السؤال المفترض البحث عنه دائما في كل مسألة؛ من المتسبّب في هذه المأساة الكبرى؟

- سؤالك يا عمار بحد ذاته حرب أخرى، والعزاء الوحيد هو أن تجد

هنا أشخاصا كثيرين مثلي!

يضع عمار سيجارته على حافة المطفأة وهو ينظر إلى ماتيا...

– أتعرفين لقد اتصل بي أوبالدو مرات عدة ليقنعني برسم لوحة، وأنا معرض للطرد من المنزل الذي أنا فيه...

وضعت يديها، الواحدة على الأخرى فوق شفتيها، مندهشة قائلة:

– وهل مازلت على رأيك؟

أومأ لها برأسه نافيا...

– لا... غيرتُ رأيي، أمام هذه الظروف الطارئة يمكن تغيير أي شيء، سأحاول خلال المدة المتبقية أن أرسمها، لكي أتدبّر مأوى قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه، رغم عدم التوقيع يعود الأولاد لآبائهم مهما طال الزمن.

– يمكنني أن أساعدك..

قاطعها...

– لا.. أشكرك.

اقشعر بدنها، حينما قاطعها بكلمة (لا) شعرت أنه نهرها، ثم تحوّلت إلى شيء من الارتياح المؤقت عندما طلب مساعدتها في شيء آخر...

– يمكنك مساعدتي في شيء واحد.

وفي وسط هذه الورطة التي وضعها فيها لم تنبس ببنت شفة، أضاف:

– أريد أن تبحثي لي عن مأوى مؤقت حتى أتدبّر أمري لاحقا.

محاولة إخفاء صدمة (لا) وتشجيع نفسها على الكلام:

– حسنا... سأحاول.

– يبدو أن الأمور تزداد سوءا في العالم ونحن هنا لا نكترث بما حولنا، أنظري حولك الناس تتجول بطريقة عادية، ما أراه في وسائل التواصل والإعلام يبعث على الرعب، أما الواقع فإنه مصاب بالفصام، الكل يعبث بكل شيء.

– في الواقع إيطاليا محصّنة من الأوبئة منذ القدم، وستظل كذلك.

حملت حقيبة اليد الصغيرة وانصرفت وهي لا تريد الانصراف، دون أن يتحرك من كرسيه، ينظر إليها تختفي رويدا رويدا، بينما يظهر في الجهة الأخرى أوبالدو قادما دون أن ينتبه إلى ماتيا، وما إن لمحه حتى أطلق ابتسامة عريضة من بعيد، يتكلّم قبل أن يجلس في الكرسي الذي كانت تجلس فيه ماتيا:

– صديقي الفنان، لقد أسعدني لقياك، آسف عن التأخير.

– مرحبا أوبالدو..

جلس وهو يقول:

– وأسعدني قبولك الصفقة، عندما انبهر الرجل الثري برسمتك وأراد ألا يجبرك على شيء لا تحبه، صديقي هذا كذلك يملك حسا فنيا، ويعلم أن الرسمة لن تكون في مستوى تطلعاته إذا جاءت بالغصب، غير رأيه في اللوحة وهو يطلب منك لوحة أخرى، وسيعطيك ثمنا لا تتخيله إذا نالت إعجابه.

– حسنا، ما هي هذه اللوحة؟

– الصرخة.. رائعة الفنان إدفارت مونك...

– ههه هل تمزح؟ تلك لوحة فنية بعيدة المنال، لا أظن أني قادر على تقليدها.

– لا تستصغر نفسك ولا فنك، متأكدون... نحن نعلم أنك تستطيع أيها البارع.

ليس لعمار خيار الرفض، وضعه الآن لا يسمح بالمفاوضة، هو يقرّ في نفسه أنه سيجعل المستحيل ممكنا، وأن يخرج من هذا الفخ التي وقع فيه...

– حسنا... هي لوحة تدل على الخوف والقلق... سأحاول مجهودي أوبالدو... المهم... كم الثمن الذي يمكن أن يدفعه؟

– سيدفع لك بسخاء إذا أعجبته اللوحة، وقبل كل هذا سندفع للشخص الذي يريد طردك من البيت، سيكون الثمن حسب جمال اللوحة واستحقاقها.

– لكن يا صديقي، لا تنسى شرطنا.

بوجه مقطب، أجابه عمار:

– ما هو؟

– ألا تضع توقيعك عليها.

رد بانزعاج...

– هذا أمر غير مقبول... كيف تأخذون أحد أعمالي دون توقيعي؟ إنها سرقة واحتيال وابتزاز واستغلال...

محاولا تهدئته بابتسامة، قائلا له:

– لا تفهم الأمور هكذا يا صديقي فلتهدأ، في النهاية الصورة ليست

صورتك، كما أني أعلم أنّ هذا صعب عليك، لكنّه شرطنا الوحيد بعد إتقان الرسمة، واعلم أن الثمن سيكون مغريا جدا، أنا أضمن لك ذلك...

لم يتم الاتفاق في تلك الجلسة، وطلب عمار فرصة للرد عليه عبر الهاتف، مع علمه أنه في وضع لا يُحسد عليه، لكن رسم لوحة ما ستكون تأمينا لعدم المبيت في الشارع، ستوفر له بعض الوقت، يتمنى ألاّ يكون الوقت طويلا، يرهقه ويضاعف همومه التي بدأت بالتراكم، ثم أن اللقاء تأجّل أكثر مما يجب... لذا لا مفرّ من رسم اللوحة مادامت تتلاقى مع ما في دواخله من قلق، سترسم وكأنها الأصلية تماما...

الفصـــــل (٤)

رقصة الموت

كانت الرحلة طويلة امتدت لأربعة أيام وخمس ليالٍ، كانت مريرة بين إيطاليا ومصر لخطورتها، لكن عندما نريد أن نعانق المتعة ننسى العذاب، ويتلاشى غبار السفر، وتنتعش الروح في سماء تحتها مَن نعشق، وفوق أرضها من نهوى، ومَن شعرنا بالسعادة لأجلهم رغم طول التعب.

كان ثمن اللوحة سخيا وكان من ضمنه ترحيل في قارب الرجل الثري إلى القاهرة، فبعض الأثمان تشتري كل شيء، وتتجاوز ذلك بكثير.

كان مرزوق في انتظاره، ذلك الكهل الفلسطيني صاحب الخمسين عاما، المفتول العضلات، المبتسم الوجه، المرسوم على شاربه سواد خفيف، يكاد لا يظهر في وجهه المنتفخ شعر أسود، شديد بياض الجسم، مع ذراعين غليظين ولباس أنيق، يبدو أصغر من سنه، يقترب رويدا رويدا من آخر الشارع، بمشية سريعة، وقد كان في انتظاره كما أمره المعلم فرج، أبلغه أنه رجلهم الذي أوصي عليه شخصيا من الرجل الإيطالي، ومرزوق سيقوم بالواجب معه، حيث سيدلّه على مكان إقامته، ويعطيه الوثائق اللازمة، ويصرف له العملة التي يريد، والنصائح الضرورية في بلد لا يعرف فيه أحدا.

بيد أنه سيعرف فيه كل البلد مادامت حبيبة القلب نور هنا، الآن

أصبح يراها في وجوه العابرين، وفي كل فتاة تلمحها عينه، بل قد يدقق في وجهها ربما هي، لكنه يخيب، البحث عنها كالبحث عن إبرة في نهر النيل.

ينتقل من غربة إلى غربة أرحم، الألم درجات، كأيّ شيء، لا شيء ثابت ولا شيء مطلق، تتحدانا أرواح خفية، تستهزئ بمشاعرنا، وتتلاعب بمصائرنا، لا لشيء سوى أننا أرقّ مما يجب.

لكن هذه المرة تختلف الأمور كثيرا عن البندقية، هي مصر التي تستقبلك بمقولة (يا داخل مصر منك ألوف) وها هو الآن ضمن الألوف التي ستعيش بضعة أيام حتى يجد مكان إقامتها، عنوانها في قلب القاهرة في شارع الدار الحمراء، متمنيا ألا يجد صعوبة في تحقيق اللقاء الحلم.

يريده ألا يكون لقاء مستحيلا.. ألا يكون إحباطا.. أن ينتهي الانتظار فورا...

هو يصرّ عليها وهي غائبة عن المشهد رغم أنّها في ذاكرة لا يأكلها النسيان...

النسيان في فلسفته نوع من أنواع الذاكرة، دائما هناك شيء ما، في مكان ما لكن لا نعيه.

أما في مصر فإن شيئا ما يجذبه إليها، غير حبيبته، لا يعلمه ولا يفهمه، يكنّه في وجدانه العميق ولا يميزه، إحساس يفوق الوصف، ووسط الازدحام، يخترق به مرزوق في سيارته أحياءها، يحكي له عن حبّه للفنّ، وعن عشقه لفلسطين الغائبة عنه الساكنة في قلبه، ومصر التي يتجول فيها كأنه مصري أبا عن جد، يقول أن علاقة المصريين والفلسطينيين أكثر التحاما من أي علاقة، إنها علاقة الدم، وأخبره

رغم كل السنين التي قضاها هنا، عانى خلالها مرارة الحياة، وغربة المكان، فمهما شعرت بحب الناس لك، إلا أن كلمة مرة واحدة من أحدهم، تعود بك إلى أسوأ حالة نفسية، وتغلبك حالة يأس وغربة لا تزول إلا بعد أيام...

– الوطن لا يعوّض يا صديقي... يريد الاحتلال الإسرائيلي مسحنا من الخارطة...

فقاطعه عمار:

– أنا لا أعترف بإسرائيل، هي الدولة اللقيطة التي أنشأها الصهاينة.

ضحك مرزوق، وقال:

– فعلا...

قاطعه عمار يبلغه فهم معنى حديثه:

– وستبقى كذلك.

– أنت صريح جدا.

– أكيد.

– هههه جيد... الليلة سآخذك لترتاح في مسكنك، وغدا سأتجول بك في القاهرة، رغم أن هناك تحذيرات من وباء كورونا، والوضع الصحي غير مستقر في البلاد، عليك الانتباه من مخالطة الناس.

التفت عمار إلى يمينه ملاحظا ازدحام المارة والسيارات في الطريق...

– يبدو أن الناس غير معنية بالكورونا، لا شيء ملموس على الأرض.

– لا يشعر الناس بالخطر إلا إذا زار بيوتهم، هنا ينسجون النكت

على المآسي لكي يتجاوزوها، مثلي هههه... البسطاء يموتون أكثر وأفظع بغير الكورونا، يموتون بالهمّ والفقر والجوع واليأس والمرض، الأغنياء أشد رعبا من الموت، الفقير يعتبر نفسه ميتا، هو في الحياة في كل الأحوال لا يخاف...

– وهو ما يصعّب الأمور على الحكومات.

– هههه ... أتمزح؟ الحكومات في واد والشعب في واد، هههه هذه أول نكتة أسمعها هذا الصباح.

فتح مرزوق باب شقة في عمارة في قلب القاهرة، يتقدم عمّار، وهو يحمل له حقيبته، ويرحّب به وكأنه صديق يعرفه من زمن طويل، متمنيا أن يقضي أياما رائعة هنا، أعطاه شريحة هاتف جديدة ثم تبادلا الأرقام حتى يتصل به عند قدومه غدا ليتجول معه.

لم يكن هذا الكرم عاديا... أخبره مرزوق أنه أُوصي عليه بطريقة ليست عادية، وهو ما جعل عمار يستغرب حفاوة الاستقبال، ونوعا من الفضول حوله، لكنه أجّل إزعاجه ليوم لاحق.

*****

كل هذا الإطراء بسبب لوحة عمار..

تعجّب أوبالدو من لوحته قائلا:

– ليس الأمر هيّنا يا صديقي أن ترضي الرجل الإيطالي، لقد انبهر بك، ألم تر كيف احتضنك بقوة، وناداك أنت هو ليوناردو دافنشي الذي أبحث عنه، وقال لك أنت رائع وعبقري حقا؟

الرجل الإيطالي روكو كان طويلا جدا ونحيلا، مدمن تدخين، سريع الغضب وكان متقلب المزاج، له نظرات حادة، يعم جسمه بالوشم كما

يظهر على ذراعيه، أحدها وشم واضح على شكل خنجر أخضر صغير على رسغه، هو نفس شكل الوشم الموجود على ذراع أوبالدو، ما أثار عدة أسئلة في ذهن عمار، وعلاقة المدعو الرجل الإيطالي بأوبالدو، أكثر من علاقة رئيس بمرؤوسه، أو صديق بصديقه...

لا يهم في هذه الحادثة إلا المبلغ الذي عرضه الرجل الإيطالي عليه، بعد عمل دام عشرة أيام كاملة، بين ليل ونهار.

الرسم عمل فني يتطلب مجهودا نفسيا كبيرا، ليس مجرد مجهود عضلي وسهر فقط، نظرا للمبلغ الذي لم يكن يحلم به عمار طول مسيرته الفنية، شيء من الحظ والموهبة صبّ عليه مبلغا معتبرا، رغم أنه تنازل عن التوقيع على الرسمة، لكن لا بأس بالتضحية في سبيل تحقيق شيء ما، لم يكن موقفه قويا في ظروف صعبة من جميع الجوانب، بين الطرد من المنزل، وتعقّد وضعه القانوني في إيطاليا، غيابه عن أهله، وجوده في شبه حصار، في ورطة، وعثوره على هذه الصفقة يعتبر أروع مخرج يمكن أن يحدث له... بينما المهاجرون في ورطة أكبر، أغلبهم طردوا من أعمالهم، كما طرد طه من المقهى الذي كان يعمل فيه نتيجة لتراجع توافد الزبائن، سأل عنه عمار فأخبره النادل أنه متوقف عن العمل.

لم ينل إعجاب روكو إلا بعد أن كان يرسم بمزاج... بتذوق... بهدوء... ساعدته في ذلك إجراءات الحجر التي أعلنتها الحكومة الإيطالية، وقد وفر له أوبالدو كل أدوات الرسم من النوع الرفيع وبالنوعية التي لن يجدها في مكان غير إيطاليا.

كانت ماتيا تزوره في البيت بعدما تفرغ للرسم لينهي مهمته في أسرع وقت، وسمح لها بالاقتراب منه لتنبهر بإبداعه، تتقرب إليه في كل نظراتها وحركاتها، وعندما لا يجد مزاجا ورغبة في الرسم يخرج معها

في جولات صفاء، دون أن تدري أن تلك اللوحة طريق للرحيل نهائيا من البندقية.

قال لها ذات ليلة؛ وهما جالسان يتأملان تلاطم أمواج البحر، جاعلين المدينة خلف ظهورهما، وسط عدة أشخاص منتشرين ومتوزعين في أرجاء الشاطئ...

– أتعلمين أن كل شيء يقبل الرسم؟ كل من في الكون لديه رسمة جميلة، يرسمها من الزاوية التي يرى بها الحياة، اللوحة انعكاس لداخل الرسام، فلو كانت الرسمة سعيدة والرسام حزينا، تكتشفين أن العمل فيه مسحة حزن دقيقة وخفية، وكذلك إذا كانت الرسمة حزينة، وكان الرسام مبتهجا تظهر سعادته كنور خافت على مكان ما في اللوحة، لكن ما الذي يجعل الأشياء من حولنا تبدو سعيدة بقوة جبارة، ونحن بالرغم من الكون الجميل من حولنا نظهر تعساء؟

التفت إليها، ثم أكمل:

– صدقيني... الإنسان يولد أسعد كائن في الوجود، ولكن منذ ولادته وقبل أن يعي الكون ويعبر عن إرادته، وهو يتلقى الضربات تلو الضربات، والخيبات وراء الخيبات، ويتراكم الألم على الألم، سنوات بعد سنوات، فتخبو السعادة شيئا فشيئا...

– لكنها ستقاوم حتى تفرض نفسها.

– نادرا ما تستطيع.

– إذا لنكن ذلك النادر!

– أنا فعلا كذلك... أنا لا أتكلم عن نفسي، أتكلم عن هذا العالم.

– تبدو غامضا كلما تكلمت، الناس يتكلمون ليصبحوا واضحين

وأنت تتعمق في الغموض كلما نطقت.

– الحياة غامضة.

– الغموض ضعف، يُخفي هروبا من مواجهة العالم.

– الغموض وسيلة ممكنة يمكن أن نواجه بها العالم وأنا هنا لمواجهة العالم.

شعر أن ماتيا تستدرجه في الكلام بحثا عن كلمة السر وراء وجوده هنا، ومحاولة معرفة سر توجهه إلى مصر.

عندما أنهى جملة (أنا هنا لمواجهة العالم...) انتبه لها وقد اهتزت من مكانها، لأنها استفزته، فأكمل شارحا جملته، محاولا مراوغتها.

– أنا في إيطاليا أتجول بلا خوف في عز الكورونا، بينما يختبئ الناس في بيوتهم كالفئران، أنا أخرج أتحدى الكورونا، أنا بطل عندما هزمتها، وسأهزم كل من يأتي في طريقي... إذا أنا هنا لمواجهة العالم.

– أصبت بالغرور الذي كنت تتهمني به.

– وأنا قلت لك أنه ليس غرورا، إنّه ثقة في النفس، يجب أن أواجه الشعور بالعجز الذي يراودني هذه الأيام.

– أنظر حولك، هناك الكثير من يواجه العالم مثلك، الحكومة طلبت من الناس أن يتوقفوا عن التجول، وها هم يرقصون في الشوارع في زمن الكورونا لا يرتدون الكمامة ولا أي احتراز يقومون به، بل إن القبلات تنتشر في كل مكان، حينما طلبوا منهم الابتعاد اقتربوا، وحينما أمروهم بارتداء الكمامات نزعوها.

– الحب لا يرتدي كمامة، كيف نعشق بلا شفاه، حيث تتسرب

من الأعماق الأنفاس، حيث نتبادل القبلات، ولا يهمنا بعد ذلك في أي وقت نموت..!! الحب أعمى يلقي بنا إلى حذفنا ونحن في قمة السعادة، حيث يلتقي الحزن والسعادة في مكان وزمان واحد، نوع من الجنون.. لا نتخيل حباً غير مصاب بالجنون..!

التفتت إليه وكأنها تراه لأول مرة، وكأنها تبحث عن حقيقة ما فيه:

- آه يا شاعر! هل تحبّ أو أحببت؟!

سؤال مباشر لأول مرة تسأله، تحاول رفع الغموض عنه وإزاحة علامات الاستفهام التي تحيط بها، تحاول الاقتراب منه ما أمكن، والغوص فيه بشكل أعمق...

- الحب مقدّس، قوي في حقيقته يمكنك مواجهة العالم به.

- لم أطلب تعريفا للحبّ، ولكنّي أنتظر إجابة مباشرة منك.

- ههه... كل أنثى تستحق الحب، يا ماتيا.

- مراوغ فاشل ههه.

انفجر ضاحكا من حديثها، وارتطمت هي بحجرة صلبه اسمها «لا جواب»...

أرادت أن تسأله:

- هل أنا إحداهن؟

لم يكن سؤالا في حينه، يحتاج إلى شجاعة لا تمتلكها الآن، وردا صريحا لا تنتظره الليلة على الأقل، ولو كانت آخرهن لقبلت بذلك...

لم تكن تتوقع أن تقع في حب كتيار جارف، تحاول أن تقاومه ولا تستطيع، وتحاول أن تستميله كل ليلة، تزداد إشعاعا وجمالا، ترتدي

أجمل الثياب، وتتأنق آخر أناقة، وتضع أبهى مساحيق المكياج وأحسن العطور، حتى أصدقاءها أصبحت تتجنبهم وتبتعد عنهم، وهم يلومونها في حب قوي كهذا مع شاب مغترب لا أمان له، كل المغتربين بالنسبة لهم أشخاص سيئون، أتوا من وراء البحر، لا يستحقون الثقة مطلقا، لكنها لا تفكر مثلهم، رغم أنها إيطالية أبا عن جد، ليس كمن يسمع كمن يلامس المشاعر ويتمكن من الداخل وينظر إليه من خلال رسوماته، صحيح أنهم انبهروا باللوحة التي أهداها لها، لكن يبقى في مستوى أدنى منهم، لا يجب الاقتراب منه أكثر مما يجب، لكنها اقتربت بل غرقت في وحله، ولن ينقذها إلا هو.

لن تنفع النصيحة في عالم الحب أبدا...

لقد جعلته مرة يرقص، أخبرته أن الذي يسكن إيطاليا يجب أن يرقص ولو كان في عز كورونا ولو في قلب الحزن، حتى ولو كانت الجنائز تسير إلى المقابر، الرقص بالنسبة لها تعبير عن قبول هذا العالم مهما اسودّ في وجوهنا، مهما عارض أقدارنا، ربما تريد الرقص مع من تحب، الرقص نوع من الحبّ بالنسبة لها، ربما لن تجده يوما ما، فتنكسر ولا تشفى، العالم رسم حدودا للبلدان ورسم للحب حدودا كذلك، هي تريد رقصة، وهو يريد رسم اللوحة...

نزعتْ عنه الكمامة، وابتسمت:

- ألم تقل أن الحبّ لا يرتدي كمامة؟

لم يجبها، ولم يحاول خلق حوار طويل فلسفي وخطير عليها، لا يمكن الحديث بغباء وسط رقصة هادئة، هي العيون التي تتكلم فقط، نظرتها تسأل:

- أتتركني؟!

- ربّما...

ذرفت دمعتين، فسألها وهو لا يدري أن عيونه تكلمت بالسرّ:

- لماذا تذرفين الدموع؟

وهو يعلم لماذا... فبعض الأسئلة نطرحها ونحن نعلم جوابها مسبقا، نطرحها لنتغابى على المكشوف.

ردتْ:

- لا شيء.

أكملا الرقصة مع بعض، لا يمكن وقف اللحظات الجميلة لأنها نادرة، اقتناصها فرصة لا تعوض، بعض اللحظات لا تعوض ولو عوّضت حقا..!!

تشعر ماتيا أنها ولدت فيه، في غير إيطاليا، بل في عينيه، وفيها تريد أن تبقى ثم تموت.

قالت له:

- المثل الإيطالي يقول (الحبّ والعطر لا يختبئان).

وقالت في نفسها:

- أإقتربت أكثر مما يجب؟! اقترابا يجعل الخروج مستحيلا؟! كخروج الروح من الجسد.

لم يستطع عمار بناء الحاجز الذي يمنع قلبها من العشق، دائما يخبرها أن هناك حاجزا مرتفعا جدا بين الجنس والحب، لكن...

تبادل القبلات كان أقوى من أن تمنعه في مقاومة تفاصيلها الرائعة،

أقوى من أن يتجاهل احتضانها له، يكتفي بقبلاتها في رقصات ليلية صاخبة، لكنه لم يقل لها يوما أحبّك، وهنا يكمن وجعها، هي تعلم أن القبلات ترمى في الشوارع، لكن الحبّ مقدس كما قال عمار، وكما تؤمن هي كذلك، لكنها مع ذلك تمتص بعضا من ريقه فيمتزجان في شفاه متداخلة، تكاد لا تنفصل، بل تلتصق، ثم تنفصل، وهي لا تريد الانفصال كنغمة لا نريد إنهاءها، كرقصة لا نريد توقيفها، لا ترغب في الانفصال من أي شيء فيه، تريد أن تأخذ شيئا منه، لكنه أقوى من نزواتها وأقوى من نزواته إلى حد الآن... في المرة التي قابل فيها روكو كما يسمونه، وأعجب بلوحته الجميلة، وعبّر عن انبهاره الشديد بموهبته، لم يصطحب ماتيا معه، لكي لا تكتشف أنه سيطلب مغادرة البندقية نحو مصر، اتباعا لنصيحة صديقيه كريم وباسم، إذْ أبلغاه أن الرجل الإيطالي ثري يملك دار أزياء مشهورة وله عدة أعمال في أرجاء إيطاليا ويملك قوارب فاخرة تنتقل بعضها إلى مصر بشكل دوري، وقد استغل حب الرجل الإيطالي للوحة، فطلب منه هذه الخدمة، لكنه أخبره أنه سيخصم منها مبلغ الرحلة، ومع ذلك سيوصي عليه هناك حتى يجد فتاته.

قال له الرجل الإيطالي ضاحكا بخبث:

– أعشق المغامرين...

– شكرا سيدي.

– عندما تعود هنا سأعقد معك صفقات أخرى، ههه لن أتركك.

– إذا سارت الأمور على ما يرام لمَ لا.

بالرغم من عرضه إلا أن عمار لا يفكر في العودة إلى البندقية إذا وجد منفذا مباشرا إلى الجزائر، التعامل مع أشخاص لا تعرف حقيقتهم

يمكن أن يوصلك إلى المجهول، أن يطلب منه لوحة بدون توقيع أثار شكوكه وخوفه كذلك.

لماذا يطلب لوحة بدون توقيع؟ التوقيع أشبه بالولادة الطبيعية والنسب، لايمكن أن تتغافل عن نسبك، فالرسم ولادة عسيرة، تنتج شيئا منا، يطاردنا حتى ولو تركناه.

حينما سأله هذا السؤال، أجابه:

- أنا أهوى جمع اللوحات الفنية، كل اللوحات الفنية التاريخية خزنتها الحكومة في متاحفها وأنا أريد تزيين قصري، فكما ترى القطع الفنية والأثرية في كل أركان القصر، ولا أكتفي... الفن في عروقي.

لم يكن جوابه مقنعا، إلا أن عمار لن يقول ذلك، لن يعترض، لأنه يريد المال والسفر، وهذا الرجل الإيطالي ضمن له كليهما... ولن يرد إلا في الوقت المناسب.

قبل الرحلة الطويلة التي قد تكون الأخيرة، كان يريد أن يرى ماتيا، رغم أنه لا يدري لماذا، لكن هاتفها لا يرد، وكأنها تأبى مقابلته، لأول مرة لا ترد، وهي التي كانت تردّ في أول رنّة، ربّما علمت بعزمه على الرحيل نحو فتاته التي لم يخبرها بها يوما، وهي الآن تنتشي مع أصدقائها تريد أن تنسى حبا كان كالسراب...

نسيانا أبديا...

*****

قضى اليوم الأول في استكشاف القاهرة وأزقتها، ولم يكن اليوم كافيا ليشبع فضوله المرتبك أصلا، وقد انتهى بجلسة مع مرزوق في مقهى تهزّ أركانه أغنية أم كلثوم في جو ربيعي بدأت تلذع حرارته.

نسيت النوم وأحلامه...

نسيت لياليه وأيامه...

بعيد عنك حياتي عذاب...

متبعدنيش بعيد عنك...

مليش غير الدموع أحباب...

معاها بعيش بعيد عنك...

غلبني الشوق وغلبّني...

وليل البعد دوبني...

ومهما البعد حيرني...

ومهما السهد سهرني...

لاطول بعدك يغيرني...

ولا الأيام بتبعدني...

انتبه مرزوق بأن عمار غرق في تفكير بعيد...

– ههه... أين ذهبت يا عمار؟

– أخذتني الأغنية إلى أبعد مكان، بالرغم من مرور الزمن تأبى أم كلثوم الاندثار.

- الذي يخرج من الأعماق لا يمكن أن يندثر.

- الكلمة مع اللحن مع الأداء يساوي سحر.

- ههه... لا يشفي من السحر إلا اللقاء.

ابتسم مرزوق وقال:

- غدا كما اتفقنا، سنبحث على العنوان الذي أعطيته لي، وستحقّق اللقاء.

- أنا قلق جدا، رغم أني أتجول الآن قريبا منها، لكني قلق من عدم العثور عليها.

وضع مرزوق يده على صدره، مع ابتسامة تبعث على الثقة، وقال:

- أنا هنا ههه لا تخف، سنجدها.

كل شيء مريب وخطير، عبور كل هذا المسافة من أجل شيء غير مؤكد، من أجل شخص لا تظهر أي دلالات على وجوده، مع تزايد أخبار النعي على الفايسبوك، أموات بدون ذكر الأسماء، أصبحت أخبار الموت في كل مكان، وأغلبها في المستشفيات، ونور تعمل في المستشفى، وهي ملتزمة في عملها ولو على حساب سلامتها، كثر ذكر الموت، وصار بدون جنازة يجتمع فيها العائلة، يدفن الميت بالكورونا بدون حشد من الناس، بدون تقديم تعازي خوفا من العدوى، أصبح الناس يخافون من التصافح رغم أنها يتصافحون، ويخافون من اللقاء رغم أنها يلتقون، ويتدافعون في الأسواق ومختلف التجمعات، والمقاهي تعج بالشيوخ والشباب التي بدأت تمنع من الفتح لكن الناس دائما تتحايل عل القانون بطريقة أو بأخرى، الموت والحياة يتعايشان، الفرح والبكاء رفيقان، التشويش أصبح سمة أغلب الناس، وكذلك

هو عمار غارق في التشويش، والليلة التي تسبق البحث عن مقصوده ستكون طويلة لأنها بدون نوم، يختلط فيها الفرح بالرعب، الترقّب بالخوف، ليس العنوان إلا كتابة لا يمكن الوثوق في حقيقتها، مع أن مرزوق أخبره أنه يعرف المكان، والوصول إلى ذلك الموقع سهل لكن البحث عن البيت سيكون أمرا آخر، فقال له:

– أنت ضيفي، ولا يمكن أن يخيّب الحبّ...

كلمات مرزوق المطمئنة تأثيرها محدود، فمشاعر الخوف تطغى على وجهه، كلما اقترب من العنوان يزداد خفقان قلبه.

لقاء الحبيبة وجها لوجه ليس كالصورة على شاشة الهاتف أو الكومبيوتر بعد زمن طويل، اللقاء الطبيعي لم يتمكن من اختراعه الإنسان إلى حد الآن، له صفات عميقة لن يصل إليه مخترع ما، لو وصل إليه ما كان لنا حاجة إلى السفر، فالسفر من أجل تلك اللحظة الجميلة بعطرها ورائحتها ونسماتها، السفر من أجل من نلتقي، يستحق العناء لكن ليس لأطول مدة تنتهي بخيبة أمل.

يسير مرزوق بالسيارة بين الأزقة والشوارع، ينتقل من موقع إلى آخر، من شارع إلى شارع، رغم أن حركة المرور بطيئة ويحاول تفاديها، لكنه يصطدم بتوقفها في مكان آخر، وخلال ذلك يبعث كلمات الاطمئنان والهدوء والصبر، مع كثير من الضحكات، وبين الفينة والأخرى يخبره بمعالم وأماكن سياحية ومناطق جميلة تستحق الزيارة إذا طال به المكوث في القاهرة.

– ها قد وصلنا إلى العنوان.

شارع واسع، قليل الحركة، وكأنك لست في القاهرة المزدحمة، هنا تقلّ حركة السيارات، ويكاد ينعدم الأشخاص، تبدو فيلات صغيرة

متجاورة، يتسلّق في أبوابها أوراق اللبلاب تغطي المداخل وتلتوي كالتواء العشاق على بعضهم البعض، وترتفع إلى أعلى البنايات ثم تتفرع هنا وهناك وتتدلى في كل جهة من الجهات، يتخلل هذه اللوحة الجميلة ألوان زاهية، زهور من كل لون، وتتعدد الأنواع من بيت لآخر ويستفز جمالها إبداع وموهبة عمار في الرسم.

تتوقف سيارتهما وسط الشارع، يترجلان منها ويُقلّبان نظرهما في المكان.

لا يستطيع عمار إخفاء فرحته التي تنتظر الانطلاق:

– هذا هو حيّ الدار الحمراء، والذي يجب البحث عنه هو رقم الفيلا ٠٧.

– تعال نبدأ في البحث عن رقم الباب.

بعد أن مشيا مسافة غير طويلة يجدان الرقم، يستعملان زر المنبه، ولا أحد يجيب، يعيدان التنبيه أكثر من مرة، بدون أن يرد أحد، وليس هناك أي مظهر من مظاهر الحياة، حتى أوراق شجرة الجهنمية تفتقد للحيوية والنظارة وهي أقرب إلى الموت منها إلى الحياة، قريبة إلى الاصفرار منها إلى الاخضرار، والألوان خافتة حد الذبول، مع كل انتظار يبدو أن كل الدلائل تؤكد أن لا أحد موجود، فكل الأبواب والنوافذ موصدة، بينما تصدر بعض الحركات هنا وهناك في البيوت المجاورة، ومع عدم جدوى الاصرار في فتح الباب ووجود أحد بالداخل، يمر قربهما رجل يسكن في هذا الحيّ، فيسأله مرزوق:

– من فضلك، هل يوجد من هو في هذه الفيلا؟

– لا أحد هنا.

– هذه فيلا الطبيبة نور؟

– نعم، لقد غادرتْ منذ أيام طويلة بعدما توفي والداها بالكورونا، ذهبت إلى مزرعة عمها في الصعيد.

أصيب عمار بخيبة أمل جديدة، وازداد رعبا عندما سمع اسم كورونا ووفاة والديها.

تدخل موجها سؤاله للرجل:

– هل أصيبت هي بالكورونا كذلك؟

– سمعت أنها هي التي أصيبت أولا ثم نقلت العدوى لوالديها، هي السبب في موت والديها، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وذهبت من هنا مريضة وحزينة جدا.

نزل خبر الوفاة على رأسه كالصاعقة...

– هل تعرف عنوان عمّها يا أخي؟

– الذي أعرفه أنها ذهبت إلى عمها الحاج أحمد المهدي هناك في الصعيد في سوهاج.

ألقى عليهما السلام ثم غادر.

يضرب عمّار كفا على كف، ثم يضع كفه على جبهته من هول ما سمع، حدث ما لم يتوقعه، تتسارع أنفاسه مع دقات قلبه، يحدث نفسه بالأسوأ، هي مصابة بالفيروس، وتسببت في وفاة والديها، وقد انتقلت إلى عنوان جديد في الصعيد، كلها أخبار مزعجة مرعبة بالنسبة له.

بالرغم من النتيجة التي أفزعته، إلا أن مرزوق يتدخل محاولا مواساته، في مقهى غير بعيد، يتوقفان ويجلسان حتى يستجمع قواه

وأفكاره، يتحدث إلى رفيقه:

– لا يمكن الاستسلام، المجيء من آلاف الأميال لن توقفه مسافة أخرى مهما زادت، ولو كانت إلى بلد آخر، سأطارد حلمي إلى أبعد الحدود.

– صدقني يا عمار يزداد إعجابي بك كل دقيقة، أنت من قطعت كل هذه المسافة من أجل فتاتك، أنت صادق، والفتاة التي جئت لأجلها أظنّها تستحق تضحيتك.

– لكني قلق من إصابتها بالفيروس لكونها طبيبة وتخالط المرضى، حالتها النفسية صعبة جدا أشعر بذلك كأنها معي، لأنها تسببت في موت والديها، لذلك فقدت حسابها في الفيسبوك أو أغلقته، وهي في خطر ولست متأكدا من العثور عليها.

– لا تشغل بالك في العثور عليها سأفعل المستحيل لفعل ذلك، فقط أعطني اسمها الكامل وطبيعة عملها وكل معلومة صغيرة وكبيرة عنها، عندي أصدقاء في كل مكان، سأطلب مساعدتهم، لأن سوهاج كبيرة في مصر، وهي مترامية الأطراف، وما عليك سوى الصبر.

– ليس لي حل، سأنتظر ككل مرة وأحاول الاتصال بها.

في ساعة صفاء، أراد أن يعرف شيئا عن رفيقه:

– وأنت يا مرزوق، هل تعيش هنا مع عائلتك أو وحدك؟

عندما سأله هذا السؤال، اعتدل في جلسته، وكأن عمار طرح عليه السؤال الذي أيقظ حنينا خفيا في قلبه:

– أنا... مقطّع الأوصال، إذا كنتَ أنت تحاول جمع أوصالك، فأنا على عكسك، وإذا كنت تحمل أملا، فأنا فقدته، وإذا كان يوجد في

قلبك بعض الحزن، فأنا الحزن كله، لا تغتر بالضحك الذي أتقنّع به، بعض الحزن يظهر على شكل ضحكات، كما نبدي بعض الفرح بدموع غزيرة، صحيح أني هكذا لكني أحبّ إرادة أمثالك.

– آسف يا أخي، لقد أحييتُ جراحك.

أومأ مرزوق رأسه والحزن بادٍ على وجهه:

– لا بأس، هي الحياة، كل إنسان لابد أن ينال مكتوبه.

ما إن أكمل جملته حتى تذكر نور وحديثها عن المكتوب...

أكمل مرزوق كلامه:

– المكتوب الذي أوصلك هنا، هو الذي أوصلني إلى هنا كذلك، وجمع بيننا، وسيجمعك إذا أراد بحبيبتك نور..!

– لكن يا مرزوق نحن لا نعرف ما كتب لنا، لذلك سنحاول كتابته بأيدينا، أليس كذلك؟

لم يجب مرزوق، وكأنه تورّط في الإجابة، وحينما نريد التهرب من الإجابة نقول:

– ربما ...

كلمة (ربما) جُعلت للهروب، وليس كل هروب مريح لأنه تأجيل للهموم وتأجيج لها، كثيرا ما يكون الهروب مؤلما... مزعجا... محيرا، هذه الـ(ربمـــــا) مفيدة أحيانا للفرار من التورط، للفرار من المواعيد ومن الأسئلة كذلك.

للفرار ممن نحبّهم حتى لا نؤذيهم، وقد آذيناهم حقا، لكن ليس بشكل مباشر وقاسٍ، عندما نتلطف بالأحباب نقول لهم (ربما)، ربما

يرونها خداعا وتحايلا ونحن نراها لطفا ورحمة ليس بعدها رحمة!

*****

عندما قال عمار لماتيا ربما، لم يكن يكذب عليها، لم يضمن شيئا من تحركاته وعواطفه، ترك الباب مفتوحا لكل الاحتمالات، فكيف يضمن لها مغادرته من عدمها؟

ربما شعرتْ الآن أنه خدعها لو لم يقل تلك الكلمة، وعندما قالها فقد قال الحقيقة المُرة التي تحملها هاته الكلمة الصغيرة الخبيثة..!

الدليل على أنها فهمت الكلمة على أنها خداع هو أنها حظرته على الفايسبوك، وغيّرتْ الرقم، رداً على سفره، وعلى صدوده ونهره لها كلما اقتربت منه، ربما أرادت كلمة صادمة من أول يوم، لكنه أشفق عليها من هول الصدمة.

الآن غادرته وقد أخذت منه تذكارا لا يعوّض عليه توقيعه الفريد يختصر مشاعرها، كانت الهدية التي أثارتها وشعرت أنها لم ترقص من قبل، وصارت رقصتها أكثر معنى وروعة.

حرص ألا تكتشف ذهابه، كان أشبه بالهروب، هروب من التبرير، هو يدرك أن الحب يمكن أن يفعل المحرمات، وأنه يمكنها أن تؤجل رحيله، أن تمنعه من الغياب، كما اتفق مع باسم وكريم على ذلك، أما أوبالدو لم يعرف أن العلاقة بينهما قوية إلى هذه الدرجة كان يعتقدها مجرد صداقة سرعان ما تزول.

أما عن طه، كان في فكره، بحث عنه حيث يقيم مع بعض المغتربين من مختلف الجنسيات في حي قديم من أحياء البندقية، يوجد فيه أغلب البسطاء من العمال والطلاب والمهاجرين غير الشرعيين، انفرد به

وأعطاه بعض المال، لم يقبل طه في أول مرة لكن عمار أصرّ عليه، ولما قبض المال، سقطت دموعه، واحتضنه بشدة، كأنه يمنعه الذهاب، لكنه لا يستطيع، في النهاية يجب أن نستجيب لنداء القدر البائس.

في الحياة تتقاذفك المضادات، أشياء تمنعك، وأشياء تمنعها، كأنه العبث بعينه، كأنه تلاعب بنا من وراء الستار، كأننا مثل دمى الأراجوز لا يد لنا في أي شيء، لكن لولا هذا التلاعب لفقدت الحياة متعتها، لولا التلاعب لقتلنا الملل.

عِلم عمار أنه في الوقت الذي يستميت من أجل نيل حلمه، هناك الكثير من البؤساء، لا ينالون الحد الأدنى من الضروريات...

عِلم أنه في الوقت الذي يخرج من بلده طواعية، يخرج غيره الكثير غصبا عنهم مخلفين وراءهم فلذات أكبادهم، وشقاء أعمارهم من أجل أن يتنفسوا بعض الحرية.

عِلم أنه في الوقت الذي يختار إلى أي مكان يريد الذهاب، غيره لا يجد شبرا من الأرض يتمتع فيه بالحرية وسلامة الروح والجسد.

مرزوق عندما أخبره أنه مقطع الأوصال لم يكن يمزح، كلماته قالها بصدق وبحزن شديد، أخبره أنه لم ير مولوده الجديد منذ خمس سنوات، الآن أصبح يتكلم، ولم يقبله ولا مرة، وأولاده الثلاثة كذلك، حتى الدموع جفت من البكاء، ويحاول ألا يجعلهم يجوعون، في وطن ليس وطنهم، حيث يمكثون في مخيم نهر البارد بلبنان، يعيشون لاجئين والوطن قربهم على خطوات منهم، ومقطع الأوصال بين الضفة الغربية وغزة، حيث تتقسم عائلتي.

– تعلم يا عمار، الأشدّ ألما أن تهدم بيتك بيديك خوفا على أهلك، وخوفا على أملاكك، الأشدّ ألما أن تكون عاجزا أمام زوجتك

وأطفالك عن الدفاع عنهم، الأشد ألما أن تشعر أنك ذليل في وطنك، ثم تسلب كل شيء، وتغادر...

صحيح أنا بعيد عنهم لكني أبعث لهم المصروف، من الحكمة أن نختار بين درجات الألم، الأقل ضررا والأخف درجة.

سأله عمار في طريق العودة:

- هل تعمل عند الرجل الإيطالي روكو؟

- من هذا الرجل الإيطالي روكو؟ أنا لا أعرف شخصا من إيطاليا.

- إذا مع من تعمل؟

- أنا أعمل عند المعلم فرج، وأنفذ أوامره، هو الذي أمرني حتى أوفر لك ما تريد.

- والآن، كيف يمكنك أن تساعدني في العثور عليها؟

- يا صديقي، سنعثر عليها، لكن عليك بالصبر، فأنت قطعت كل هذه المسافة وصبرت كل ذلك الصبر، ما عليك إلا أن تواصل الصبر، أنت تعلم أن الصعيد هو محافظات كثيرة، سنبحث عن معارفها، سأذهب إلى المستشفى التي تعمل فيها، وأجلب العنوان الذي تسكن فيه الآن.

- أرجوك أسرع يا صديقي من فضلك، فأنا كنت صابرا في إيطاليا، لكن كلما مر الزمن تتضاءل الاحتمالات، وينهار الإنسان شيئا فشيئا، أنا خائف من أنه حدث لها مكروه.

- تفاءل خيرا... أظنّك قويا.

- الحب يجعل القوي ضعيفا إذا أخفق، والضعيف قويا إذا تمكّن.

– ما دمت قطعت كل هذه المسافة أثناء أزمة الكورونا حيث كل واحد يخاف الآخر، لا أظنّك إلا قوياً يا صديقي..!

مضت ثلاث ليالٍ دون نتيجة، دون خبر من مرزوق، كل يوم يسأله مرات عديدة، دون نتيجة، ما زاد قلقه أنه لا يعرف المكان، وسيتضاعف جهده لأنه يبدو كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، إذا عجز مرزوق فستتعقد مهمّة عمار.

وبينما هو في تفكير شارد رنّ هاتفه فجأة، ويقطع عليه صمته صوت مرزوق:

– مساء الخير، استعد فقد عثرنا على العنوان، أنا قادم إليك في الغد وسنذهب إلى سوهاج.

طار عمار فرحا بهذا الخبر الذي انتظره طويلا...

– ستجدني مستعدا يا مرزوق... ولو أني أريد الذهاب الآن قبل شروق الشمس.

– هههه... المسافة طويلة وتحتاج خمس ساعات على الأقل، وأنت تعلم أن إجراءات الحجر سارية في البلاد.

– حسنا... حسنا، لنتركها غدا.

كل ليلة منفردة بطبيعتها عن غيرها، تحمل محتوياتها معها، أحلامها، أوهامها، أشياءها، وأشلاءها، بعض الليالي لا تُنسى، وبعضها لا أثر لها في الذاكرة، تخيبك بعضها لتصنع منك دمية غبية على رفوف بعض الأطفال، وتكون عُرضة للتشويه والتقطيع والرفس والرمي وكل المناكر التي لن تتوقع من طفل مشاكس... في الليل يتغير التوقيت، يتمدّد ليطيل العذاب، ليكون التحالف بين الألم والزمن، تطول لحظة

الحزن وتخطف لحظة الفرح.

كما يقول المثل الإيطالي: «للحزن زوجة وأولاد والفرح رجل أعزب».

قمّة الحزن أن القضية ذات شقين، بالنسبة لأحدهم فرح عارم وللآخر حزن أسود... فتنقص حدة الفرح، ويتعفن الآخر في حزن مقيت، والحكمة تقتضي منطقة وسطى تسمى الإنسانية.

في الطريق طال الحديث بينهما، إلى أن قال عمار:

- سأبلغك سرا، إذا اتفقت مع نور فإني سأسافر مباشرة إلى الجزائر.

- آه جميل، حظا موفقا يا صديقي.

- ولكن ربما أهلها قد يتشددون في مسألة الزواج.

- هل اتفقت مع نور على كل شيء..؟

نظر إليه وهو يهزّ رأسه دلالة على عدم اقتناعه بكلامه.

- على كل حال، أتمنى لك التوفيق يا عمار.

- شكرا يا مرزوق.

- حسب المعلومات التي عندي فهي تعيش مع عمها في فيلا بمزرعته وسط المدينة، وهو من أعيان المدينة المعروفين، وله ابن واحد يسكن معه في نفس الفيلا.

ينبهر عمار قائلا:

- من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟

- ههه هناك صديقة تعمل معها، أخبرتنا بمكانها، ولكل مهنة

أسرار.

وصلا بعد ساعات طويلة من السير، دخلا مدينة سوهاج، حتى وصلا إلى مكان مسكن الحاج أحمد المهدي، وهي فيلا وسط مزرعة كبيرة تتواجد في الجهة الشرقية للمدينة حيث توجد في طريقها مزارع متجاورة، تبدو خضراء من تلاحم الأشجار والنخيل ومختلف المحاصيل، وفي وسطها فلاحون يقومون بأشغالهم اليومية، يكدّون في عالم لا يعترف بالخاملين، وبعيدا عن الطريق المزفت بمئات الأمتار تظهر فيلا بيضاء مرتفعة بين الإخضرار المحيط بها من كل جانب، ليتوقف مرزوق في مدخل الباب الحديدي الكبير ذو الدفتين، فيخرج لهما رجل يلبس عباءة واسعة يبدو أنه حارس البوابة.

عندما أخبراه بسبب مجيئهما، ذهب إلى داخل الفيلا مسرعا، و بعد لحظات جاءهما ليفتح لهما الباب، وسبقهما مهرولا أمامهما لكي يوصلهما إلى مدخل باب الفيلا الذي لا يبعد إلا بضعة أمتار، حيث يوصل إلى الباب الخشبي البني اللون المزخرف ذو الدفتين وسلالم من الجهتين، حيث يقابل المدخل من الخارج نافورة صغيرة بيضاء محفوفة ببعض الشجيرات الصغيرة المتناسقة، وكل الفيلا تحاصرها أشجار متراصة تمتد طول السور المحيط بالفيلا، ما إن نزلا من السيارة حتى ظهر لهما على الباب شيخ ذو وجه عريض جميل، وعلى ذقنه لحية بيضاء كثيفة، ترتسم على شفتيه ابتسامة، يلبس عباءة سوداء وعمامة بيضاء طويلة وفي إحدى يديه عكاز.

فخاطبهما...

- مرحبا بكما.

وبعد وابل من الترحيب بصوته الخشن الجهوري، أدخلهما إلى داخل

الفيلا حيث تتوزع أرائك بنية اللون، تتوسّط المكان وفي وسطها مائدة دائريّة الشكل وفوقها مزهريّة كريستالية.

التفت الحاج أحمد المهدي إلى عمار، قائلا له:

– الشيء الذي يحيّرني، كيف دخلت مصر؟ وكل المنافذ مغلقة، كل الرحلات أُلغيتْ، وفي زمن الكورونا التي يتكلمون عنها في كل مكان، الناس تعود إلى بلدانها وأنت تغادر بلادك... ههه... أنا لا أطردك، أنت في بلدك الثاني أكيد.

– لم يكن الأمر هكذا منذ خرجت من الجزائر، كانت الأمور تبدو مزحة، لكن أرى أن الكورونا جدية، مع تزايد حالات الوفاة.

– لا، لا... هناك تضخيم مقصود في الوفيات، هناك حوادث مرور سجلت على أنها كورونا، يقال أن منظمة الصحة العالمية تدعم ماليا الدول حسب أعداد المصابين، والطبيب الذي يعلن اكتشاف حالة كورونا يستفيد من مبلغ مالي معتبر، وامتيازات أخرى، والأمور في حيص بيص.

يتدخل مرزوق:

– ألهذه الدرجة يموت ضمير الطبيب المحلف على قسم بعد تخرجه؟!

يتكلم عمار:

– وأكثر من ذلك، المال يقتل الضمير.

يصمت قليلا ثم يكمل:

– عمي الحاج أحمد، لكي لا أضيع وقتك، قبل أن نبدأ الكلام أعظم

الله أجرك في أخيك وزوجة أخيك اللذان توفيا مؤخرا، وآسف لأني جئت في وقت غير مناسب، ولكنّي جئت أخطب ابنة أخيك نور للزواج على سنة الله ورسوله.

– سبحان الله، من الجزائر من آلاف الأميال تريد أن تتزوج من مصرية، على كل حال، أنا على علم بذلك، هي مصدومة نفسيا منذ وفاة والدها، وقد فقدت صوتها من فاجعة موت والديها بسببها، هي الآن خرساء لا تتكلم، وهو أمر يخيفنا جدا وأحزننا كثيرا.

ارتبك عمار، أحسّ بهول الحادث، يحدّث نفسه، تتسارع نبضات قلبه، تتغير ملامح وجهه، لتنهال عليه الأفكار المزعجة:

– نور تخرس... كلماتها تختفي... يُحرم صوتها الجميل... يا للهول!!

– أحقا يا عمي ما تقول، أنها خرساء؟ نور خرساء؟ يا للهول، هل أستطيع أن أراها؟!

نظر الحاج أحمد متأسّفا:

– أنا آسف، لا أستطيع.

انتهى اللقاء دون رؤيتها... دون تبرير... دون شيء يطمئن.

كانت آخر جملة تتردّد في أذنيه طول طريق العودة، هي (آسف، لا أستطيع..)، كان الصمت سيّد الموقف بينه وبين مرزوق، لم يكن الكلام مستساغا لكليهما، كل هذه الرحلة توقفها جملة (آسف، لا أستطيع..) الجملة الأشبة بالرصاصة القاتلة، لا يمكنك أن ترى حبيبتك المريضة التي فقدت صوتها، لكن رؤيتها له ربما يكون الدواء، ودواء له كذلك، يفكر متسائلا في داخله... يحدّث نفسه...

– هل أتيت في الوقت الخطأ؟ هل كنت متهوّرا غبيا إلى هذه

الدرجة؟ هل كانت نور محقة أن المكتوب أقوى من أي شيء؟ تفقد صوتها وتتحول إلى خرساء بسبب والديها؟ هل أعود من حيث أتيت؟

لكن يجب أن لا تكون للحبّ قواعد كالرياضيات والفيزياء و.. و.. لأنّ منبعه القلب، الحب جنون في توقيته، عدو الحبّ هو المكتوب، نادرا ما يتحالف الحب مع المكتوب، أرادت الكورونا إقامة الحاجز بيننا لكن...

قتل المكتوب والديها ليخرسها ويخرس الحبّ الذي بيننا، والحبّ لا يكون بالكلام، الحبّ مصدره العيون، كل الذين يتكلمون في الحب يكذبون، الحبّ الصامت أصدق...

تتواصل جحافل الأسئلة وتتراكم دون توقف، كاد رأسه ينفجر، حتى وصل إلى سريره، ومازال يحدّث نفسه، يتمتم، يشعر بدوار أصابه، دون أن يخرج بنتيجة، يلقي بجسده، دون أن يغير ثيابه التي حملت معه همّ الأسئلة والتعب ورائحة العرق، وينام من شدة التعب كما سافر، لا يدري ماذا سيفعل في اليوم التالي، ربما سينتظر كما انتظر في البندقية، الانتظار لعنة العاشقين، لا مفرّ منه، سينتظر شيئا من بصيص أمل ربما يتجلى، أو طريقة ما توصله إلى نور، لا يمكن لا لعمّها ولا للعالم أن يمنعه مقابلتها، ولو كانت خرساء فلا يهم، إذا كانت على قيد الحياة فهي أقصى أمنياته... وبذلك فهو على قيد الحياة...

الفصل (٥)

اختطاف مزدوج

في الصباح التالي، في وقت متأخر من النهار يستيقظ عمار، يجد نفسه على فراشه منذ البارحة وكأنه قد فقد ذاكرته، لم يتحرّك كأنّه جثة هامدة منذ ليلة الأمس المشؤومة، لا يريد أن يتذكرها، تلك الخيبة التي لم يتوقعها، مرض وخرص وصدّ، بعدما علق كل آماله على آخر خطوة، بينما كل شيء يحارب حلمه الجميل، لا مكان للجلوس سوى في مقهى في الجانب الآخر من الشارع، يطلب قهوة ويلهب السيجارة التي بين أصابعه المضطربة، يقلب شاشة الهاتف في صفحته وصفحات العالم التي تركز كلها في فيروس الكورونا، أمريكا تتصاعد فيها الحالات وكذلك إيطاليا، بدأت المشاكل تتعقد وأرقام الموت في الجزائر ترتفع، أصبح الرعب موضوعا مصدقا من طرف المنكرين، لا يمكن نكران الذي يقتلنا، ربما هناك تلاعب في الأرقام، فذاك شيء آخر، أما الواقع أن الكورونا كشف عن شراسته، صور مقلقة في البندقية في غياب ماتيا وكل أصدقائه هناك...

يتصفّح الرسائل المعلقة، هو يبحث عن حل لهذه الورطة التي أوقع نفسه فيها، ليس من عادته قراءة الرسائل، فكلها متشابهة، وهو يبحث عن الجديد، فإذا به يلمح رسالة باسم يعرفه... إنها نور!

يفتح الرسالة بسرعة، نصّها:

- مساء الخير..

الرسالة فيها جملة واحدة، أنارت بصيصا في قلب كاد أن يُظلم، رغم أن الرسالة بُعثت في وقت متأخر من ليلة البارحة، حين كان عمار في سبات عميق، والآن وقد أرسلت رسالتها، سينتظر أن تفتح لكي يكلمها عن كل شيء ويسمع منها كل شيء...

كتب لها:

- مساء النور حبيبتي... سلامتك، أنا آسف على ما حدث لك من مصائب، كنت أود أن أكون معك في كل الظروف....

في سرعة خاطفة يترك المقهى وضجيجها ويتجه إلى مكان هادئ يترقب أن تفتح نور الرسالة ويتواصل معها ولو انتظر يوما كاملا، فقد شعر بفرح شديد.

لم تتصل به حتى أظلمت القاهرة وجن جنون الليل، بدأت الرسائل بينهما تتبادل كحمام الزاجل

- حبيبي هل أنت في مصر؟

- نعم... آسف على التأخير، لقد عانيت حتى وصلت إليك، لقد جئتك إلى سوهاج، هل أخبرك عمّك؟ رفض أن أقابلك، لا أعلم لماذا؟ أنا آسف عما حدث لوالديك.

- آه... لقد اشتقت لك.

- وأنا كذلك.

- لكني مازلت مريضة جدا، ربما لذلك رفض عمي، حزنا على موت أخيه وزوجة أخيه، أمّي، لم يكن الوقت مناسبا.

– لا ألومه، الأحوال متدهورة في كل مكان.

– صحيح، الحمد لله على كل حال.

– الحمد لله.

– لكني...

– ماذا؟

– أتعلم ما حدث لي؟

– ماذا؟

– ألم يقل لك عمي عن فقداني صوتي بعد وفاة والديّ.

– ألا يمكن أن أراك الآن على الشاشة؟

– أرجوك يا عمار، أنا في حالة سيئة ولا أريد أن تقلق عندما تراني، ما دمت وصلت رغم المخاطر هنا، فنستحق أن نلتقي آجلا أم عاجلا.

تبادلا الرسائل ليلا كاملا، نستْ نور مرضها، وذهب همّ عمار، حينما نتكلّم مع من نحب يصبح التوقيت عدوا لدودا يريد أن يفرض نفسه ونحن نتجاهل استفزازه، وفي الأخير يسرقنا ويهرب وتتحول الحقيقة إلى خيال.

عندما كان عمار يتسكع في شوارع البندقية، ويتجول في أزقتها مع ماتيا وغيرها، كانت نور تقاوم المرض الذي أراد أخذها مع والديها، تمكنت هي من المقاومة، لكنها فشلت في رده عن والديها، ترك في قلبها شجنا كبيرا لم تتحمل سطوته فأخذ لسانها، كان الألم شديدا، فراق الأبوين ليس سهلا بدون تدخلها لكن أن تكون سببا في موتهما وهي طبيبة ليس عليها أن تخطئ وهي التي كانت تؤمن بأن الكورونا حقيقة

لا وهما، وقد فقدت صديقتها المقربة في المستشفى بعد معاناة طويلة، يتفنن الكورونا في محاصرتك، هو مخادع لأنه لا يكشف عن نفسه حتى يتمكن منك، ثم يأخذك وحدك بدون جنازة تليق بروحك الطاهرة، كما أخذ كثيرا من الأرواح دون جنائز حاشدة وتعازي مناسبة، ثم أن الوجع الأكبر ألا تجد من يواسيك، ولو من بعيد، مُنع عنها الهاتف والتواصل مع العالم الخارجي، صحيح أن المرض لا يمهلك، لكن يمكنك أن تقول كلمتك الأخيرة لهذا العالم.

ابن عمها همام كان يترقب أن تموت حتى يأخذ كل شيء، كل الميراث، لم يترقب نجاتها، بل ترقب نهايتها، كان الوريث الوحيد في العائلة، ولم يقنع بما عنده، حينما اكتشفتْ ذلك، كان الموت أحب إليها من العيش مع أشخاص يفكرون بهذه الدناءة، هؤلاء الأشخاص هم السبب في تفشي الكورونا..!! لأنهم يفكرون بهذه الخسة والدناءة، لكن المرض كان أقوى منها، اضطرت للبقاء عند عمّها كتمثال من وجع، الوجع في غياب ما يثير فرحها، بين جدران صارت إحداها، ربما كانت الجدران أرواحا محطّمة جدا، رغم كل هذا صار ابن عمها عندما بدأت تتحسن يلمح لها بالزواج، مع وعود أخرى بأنه سيطلق زوجته بعد أن تقبل به، لكنها رفضت عرضه مهما كان بحذافيره، مما زاده غضبا، وهو يعلم قصتها مع عمار، فزاده حنقا وحقدا عليه، وحمدت الله أنه لم يكن موجودا في اللحظة التي أتى فيها إلى أبيه.

قال لها ذات مرة:

- سأنفق كل ما أملك حتى أعالجك.

الجملة التي قالها كل من عمار وابن عمها، إلا أنها تدرك كل جملة من أين صدرت، من اللسان الذي نطقها، أو من القلب الذي أحسّ

بها، تدرك الفرق الشاسع بين النقيضين، لم يتأثر عمار بمرضها، بل زاد إصراره في الارتباط بها، وهو يحمل ألف دليل على جنونه، إضافة إلى مخاطرته والسفر من آخر الدنيا، من أجل النظر إلى عينيها فقط.

لقد حسمت موقفها، وأبلغت حبيبها أن يمهلها بعض الأيام حتى تستردّ أنفاسها وتخطط لمقابلته، وأخبره اشتياقه لذلك أنه لا مانع في الانتظار إذا كان ينتهي برؤياها، وخلال الانتظار يتبادلان الرسائل بدون صوت وصورة، بل بروح وقلب.

يمكنه الآن أن يتجول كما تجول في البندقية، في العاصمة الروحية للأدب، اقتناء الكتب، وزيارة النيل، واستنشاق رائحته وشرب مائه، تجول بناظريه في عظمة إنجازات الإنسان الفرعوني، الأهرام، المثلثات العجيبة التي تجبرك على رفع قبعتك احتراما لها.

تمضي ثلاثة أيام بلياليها في مراسلات بينهما لكن بدون لقاء، بدون اتصال جسدي، بدون أن يكلّل الكلام بالفعل، يشعر أنه يسابق الزمن ولا يستطيع ذلك، وفي أحد الأيام اصطدم بخبر أن الحكومة حظرت السفر إلى بعض المحافظات المصرية من بينها سوهاج، حيث نور، تحت ذريعة التحكم في انتشار الفيروس، وسيكون حظرا لقلبه كذلك، أخبرها بذلك مما أزعجها، حتى كتبت له:

- وكأن المكتوب يحاربنا.

- بل قولي المكتوب يختبر حبنا.

عاودت بإصرار:

- المكتوب قوي جدا.

- الإنسان أقوى من المكتوب.

– أصدّقك يا عمار.

– يجب أن تصدقيني، سأجد حلا حتى أراك، ولو انشقت الأرض إلى نصفين.

– أحبك.

– أنا أكثر من ذلك.

– ما هو أكثر من ذلك؟

– لا أدري، شيء أكبر من الوصف، كلما اقتربت منك شعرت بالحياة، أتدرين كيف يتشبث الغريق بالقشة التي تنقذه لكي لا يموت؟ أنا أكثر من ذلك.

– ألا تكفي كلمة أحبّك؟!

– لا تكفي... الكلمات جعلت للتنفيس فقط، الحقيقة أن الأحاسيس لا يمكن الإمساك بها بحرف أو برسمة أو بكل حروف الدنيا، الكلمات مجرد ترهات أمام الكم الهائل من المشاعر التي تورطنا فيها، كل لغات العالم لا تنفع في وصف شيء ما في داخلنا، وداخلنا أكبر من الكلمات وأكبر منّا كذلك، رغم أننا نتحمل أعباءها الثقيلة.

– دعنا نتنفس إذاً...

في اليوم الذي أخبرته أنها تريد مقابلته، أثناء فترة الحظر التي أعلنتها الحكومة، فكر أن يجد حلا إلى هذه الدعوة الحلم التي انتظرها منذ شهرين تقريبا، أخبر مرزوق على أن يدلّه على حل، لأن السفر حظر انتقائي، فهناك بعض وسائل نقل البضائع والسلع غير مشمولة بالحظر، طمأنه أن لكل مشكلة حل، وسيجد له شاحنة أو وسيلة نقل توصله إلى سوهاج، مع إخباره أن يصبر شيئا من الوقت، ويتحمل

مشقة السفر إلى هناك.

لمّا أخبره بذلك تأوّه عمار قائلا:

– يا مرزوق، لا تحدثني عن المشقة، فهناك الراحة التي أنتظرها منذ شهور.

الحبّ إما أن يكون عذابا خالصا، أو دواء خالصا، لا يمكن أن يكون كلاهما مع بعض في توقيت واحد، ذلك التوقيت الحساس الذي يحدث الفرق بين الحياة أو الموت.

كان الطريق شاقا كما قال له مرزوق، الشاحنة التي سافر فيها غير مريحة، والسائق الشاب المدعو ممدوح، النحيف الجسم الأسمر، متواضع الثقافة، لا يعبأ بالكورونا ولا يرتدي الكمامة إلا إذا اقترب من حاجز أمني، غير أن عمار كسابق عهده في توخي الحذر من كل عدوى، سيتحول هذا التعب إلى راحة بعد رؤية عينيها، لم يبق من اللقاء إلا بضع ساعات، يعدُّها بالثواني.

استغل عمار رحلته وأن السائق يسكن في سوهاج، فسأله عن عائلة الحاج أحمد المهدي الهواري، فأخبره أن عائلته معروفة ومحترمة، وأن الحاج أحمد رجل طيب وثري، ولديه ابن اسمه همام، وحدثه عن وفاة أخيه الحاج مصطفى وزوجته بسبب الكورونا وأنها الجنازة التي ذرف فيها الكثير من الدموع، ليس من الموت فقط، ولكن من طريقة دفن الحاج أحمد وزوجته، والآن ابنته الوحيده الدكتورة نور التي نجت من المرض عند عمّها في الفيلا، يبدو أن الأخبار تنتشر في الناس انتشار النار في الهشيم..

في الأخير قال له:

– لكن ابن الحاج أحمد شخصا ليس طيبا كأبيه يا فندم.

بالرغم من كثرة فضوله واستفساراته، لم يخبره عما هو عازم عليه، لكنه جمع بعض المعلومات التي يريدها.

هذا ما قاله السائق عن عائلة الحاج أحمد، وهذا ما طمأن قلبه عن الموضوع، لو يخبره حول سبب مجيئه إلى سوهاج من آخر الدنيا، وكافح فضوله المتواصل طيلة الطريق بمجموعة من الأكاذيب، حتى أنه أقلقه كثرة أسئلته التي يقذفها كل حين، حتى عبّر له عن تذمره منه وعن فضوله الكبير.

منذ أن أخبرته نور أنها تريد مقابلته لم تفتح حسابها رغم أن الحساب مازال موجودا، لكنها لا ترد، زاد قلقه عليها، ربما سيجد حلا هنا، في سوهاج، بأي طريقة كانت، وصل في وقت متأخر من الليل إلى سوهاج، التحق ببيت على مقربة من بيت ممدوح، قضى ليلته فيه.

– جئت متأخرا، لكني وصلت...

في الغد قرّر ألا يبقى أسير الانتظار ليلة أخرى، فهذا المكان لا يقبل الانتظار إلى الأبد، لم يبق من اللقاء إلا بعض التحركات في اتجاهها، يكاد يشم رائحتها.

استيقظ صباحا، تصفّح صفحتها، رغم الرسائل الكثيرة التي بعث بها إليها دون رد، أصبح الانتظار شرّا لابدّ منه، لا يتركه ولا يسمح له بالاقتراب إلا بعد أن يستأذنه!

وقرر ألا يغامر ويتمهل في هذا اليوم، فمادامت قد اتفقت معه، ففي داخله الاطمئنان الكافي حتى تزيد قوته، أضحى الاقتراب أكثر مما مضى، سيثبت نظره على الهاتف ربما سيشع في أي لحظة بالضوء الذي

سيشرق في أعماقه وينتهي العذاب، النسمات التي تهب من شرق المدينة تبعث شيئا من عطرها وروحها.

لم تمض عليه الليلة الثانية في سوهاج حتى طُرِق بابه في منتصف الليل، أصابه الفزع ممن قد يزوره في مكان لا يعرف فيه أحدا إلا السائق الذي أوصله إلى هذا البيت بتوصية من مرزوق، فتح الباب متوجسا ومتوترا، فإذا بهم ثلاثة رجال ملثمين بزي الصعايدة، مفتولي العضلات يحملون عصيّا، يدفعونه إلى الخلف بشدة وعنف حتى سقط في الأرض من قوة الدفع، بينما قام بسرعة يحاول الدفاع عن نفسه مقاوما بكلتا يديه في كل الاتجاهات، ويصرخ غاضبا، وبدون أن يتكلم أي واحد منهم، ينهال عليه أحدهم بضربة قوية على قفاه أفقدته وعيه ثم حملوه إلى سيارة ونقلوه إلى مزرعة غير بعيدة عن المدينة، قيدوه على كرسي وحوله الرجال يقفون منتظرين أحدهم، فلما دخل عليهم، قام أحدهم برمي سطل ماء على وجهه حتى أفاق مرتعبا وقد ابتل كل رأسه ومقدمة جسده، وهو يتنفس بصوت مرتفع، التفت حوله فوجد الملثمين حوله الذين هجموا عليه، وتقدم إليه الرجل الملثم الذي اقتحم الباب متأخرا عنهم، يبدو رئيسهم، مخاطبا عمار بصوت غاضب، يتجلى في عينيه البنيتين الكبيرتين اللتين تكادان تنفجران غضبا، نظر إليه شزرا، وغضبا، وعمار لا يمكنه التحرك.

- أين نور؟!

- لا أدري.

- أين أخفيتها؟

- أنا أخفيت نور؟ هل جننتم؟ أنا جئت لأجلها، كيف أخفيها؟

- إن لم تخبرني أين هي فسيكون مصيرك الذبح والدفن تحت التراب، ولن يعلم بك أحد.

- يبدو أنك غبي، أنا جئتُ من أجلها، ولو اختطفتها أنا لكانت معي

الآن.

– من أتى بك إلى هنا؟ تكلم...

– أتيت من أجلها ولا أكترث لكم.

قاطعه، وقد اقترب منه...

– ولك دخل في اختفائها منذ يومين.

قاطعه مرتبكا، وقد تفاجأ من هذا الخبر الذي يقوله هذا الملثم...

– من أنتم حتى تسألوني عنها؟

– إذا لم تظهر نور سأقتلك.

ابتعد الملثم عن عمار وطلب هاتفه من أحد الرجال...

– تفضل سيدي.

أخذ الملثم هاتفه، وبدأ في تفتيشه فترة غير قصيرة، ثم التفت إلى عمار وهو يصرخ:

– وهذا الاتفاق الذي بينك وبينها؟ أتستهزئ بي؟ أتظنني غبيا؟ تكلم... أين نور؟

– يبدو أنك أنت الغبي.

وما إن أتمّ آخر كلمة له، انهال عليه بصفعة قوية جعلته يتوقف عن إكمال كلامه، صفعة تركت أثرا على وجهه، جعلت عمار يحاول أن يقف مع كرسيه محاولا الرد على الملثم، وهو يكيل الشتائم والسباب ردا على إهانة الملثم له، فانتفض الرجال حوله يردونه إلى مكانه مع وابل من الضرب والشتائم المتبادلة.

- اِجلس يا كلب.

- أنتم الكلاب الأنذال تتهجمون على رجل غريب، لو كنت أنا الخاطف فأين هي الآن؟ أترونها معي؟! يا لكم من أغبياء...

- ومن هذا مرزوق الذي بعثك إلى هنا؟

- لا أعرفه... تبا لكم.

عمّت المكان فوضى من تبادل الشتائم وصراخ متبادل اخترق المكان المظلم، والغضب يسيطر على الجميع، حتى أمرهم رئيسهم أن يقيّدوه جيّدا، ويكمّموا فمه حتى لا يسمع صوته أحد، وسيؤدبه غدا وينتزع اعترافا منه.

تفرق الرجال عنه، وأغلقوا الباب وراءهم بعد أن أحكموا تقييده، وحينما خرجوا جميعا حاول متأرجحا في كرسيه يريد فك رباط الحبل المشدود بقوة شديدة، لكنه لم يتمكن من ذلك، وبينما هو كذلك حتى فتح عليه الباب أحد الرجال الذين ظنهم قد غادروا جميعا، لكن يبدو أنهم تركوا من يراقبه ويحرسه أمام الباب، يصرخ عليه محذرا إياه من محاولة الهروب، أو فعل شيء سيء هنا، مؤكدا له أنه سيدفنه حيا دون أن يعرف أحد.

نظر إليه نظرة حادة مخاطبا إياه:

- ستندمون على ما تفعلونه بي.

تجاهل الرجل ما قاله عمار، كمم فمه وخرج من الغرفة، وبعض الحركات في المكان الذي جلس فيه تؤكد جلوسه خلف الباب للحراسة حتى سمع صوت شخيره بعد عدة دقائق.

شعر بضيق شديد، وقلق كبير، تعرق في جبينه، وألم في جسمه

وروحه، حينما أصبح مقيدا، ويسمع خبرا لم يتوقعه يوما، يزيده حيرة وغضبا، لتنهال الأسئلة على رأسه وتعقد في مشواره المتصاعد الصعوبة.

– من هؤلاء الذين خطفوني؟ وأين اختفت نور؟ هل هي كذلك اختطفت مثلي؟ لكن لماذا؟ كيف عرفوا مرزوق؟ يبدو أنهم من أهل سوهاج الصعايدة، ومن أهل نور تحديدا، وقد شكوا فيّ وأن لي علاقة باختفائها.

مرت بقية الليلة وهو على تلك الحالة، مقيّد اليدين والرجلين في الكرسي، مكمّم الفم، في بيت مهجور، بعيدا عن المدينة، وقد سمع خوار البقر وأصوات الماعز ونباح الكلاب تتصاعد حول المكان، يدخل عليه في الصباح الحارس لكي يتفقد وجوده، ومضى اليوم على تلك الحالة.

مرت الليلة الأولى ثم الليلة الثانية ومازال عمار مقيدا، أرهقه التعب، وشعر بالخوف للخطر المتربص به في مكان فقد الاتصال فيه بكل العالم، فقد أخذوا هاتفه وكل حاجياته، وهددوه بالقتل والدفن تحت التراب.

يفكر في حال نور، وأين هي؟ ومن السبب في اختفائها؟ لم يريدوا أن يصدقوه، لأنها اختفت حين برز هو في الصورة، ويخاف أن يكون سببا في أذيتها.

مهزوماً مكسور الوجدان
وستعرف بعد رحيل العمر
بأنك كنت تطارد خيط دخان
فحبيبة قلبك يا ولدي
ليس لها أرض أو وطن أو عنوان

ما أصعب أن تهوى امرأة يا ولدي
ليس لها عنوان...

فجأة يخترق سكون الليل أصوات ضرب متكررة يتخللها صراخ متقطع...

- يا كلب... الله يلعنك... اضربوا... اضربوا...

ثم يقتحم المكان رجلان، لم يستبين شكلهما أو ملامحهما وسط الظلام الدامس في البيت، رفع أحدهما عنه اللثام...

- من أنتم؟ ماذا تريدون؟

- اصمت، جئنا لإنقاذك، المعلم يريدك... ابتسم يا عمار فنحن نحرّرك.

ثم وضع على أنفه منديلا به مخدر، حتى فقد عمار وعيه، وهو يهذي...

*****

تحسستْ نور رأسها بكلتا يديها، وهي مستلقية على أريكة قديمة، تشعر بدوخة ودوار شديد، يؤثر على وضوح الرؤية التي تنقشع شيئا فشيئا، مع ألم في ذراعها الأيمن، عليه أثر حقنة لا تتذكرها، تبحث عن هاتفها فلا تجده، تكتشف أنّها في غرفة كبيرة عالية السقف في وسطه ثريا كبيرة غريبة الشكل، تتوزع بعض الأثاث هنا وهناك التي لم تر مثلها يوما، وفي أحد جدرانها نافذة كبيرة محصّنة بشبكة حديدية تطلّ على ساحل البحر الذي تتلاطم أمواجه، يحاول إسماع صوته لأهل الأرض، يكاد يشطر الأرصفة التي يقيم عليها شبه قصر في أطراف المدينة، يطلّ على الغرفة الكبيرة بابان، أحدهما مطبخ صغير يحوي بعض الأواني وأدوات الطهي وفرن صغير، والآخر دورة مياه يتدلى في

مدخلها رداء أسود بدل الباب.

التفتت إلى الجانب الآخر من الغرفة، حيث تجلس امرأة نحيفة في الثلاثينات من عمرها، يغطي رأسها لحاف أبيض حتى يلتف برقبتها وقميص أبيض رث... تجلس حتى تكاد تلتصق في ركن الأريكة، تنظر بشكل مخيف بعينين سوداوتين ذابلتين متورمتين ووجه شاحب جدا، تضمّ إليها بنتين صغيرتين بيديها الرقيقتين إلى صدرها، تكاد تمزجهما مزجا، كأنها تريد أن تحولهما إلى جسد واحد، ينكشف بياض ساقها، لتقوم بإخفائها بين الفينة والأخرى ثم سرعان ما يتعرى كلما تحركت البنتان، ترمق إلى نور في خوف ممزوج بحيرة، يتطاير من نظراتها الباهتة رعب لا حدود له.

تقوم نور من مكانها بصعوبة بالغة مستندة على طرف الأريكة بإحدى يديها وهي تَئنّ من ثقل جسمها المتهالك، تنظر إلى الجهة المقابلة لها، لتكتشف درجا يؤدي إلى باب حديدي محكم الإغلاق، تمشي في كل أنحاء المكان، ثم تتجه بحذر شديد إلى المرأة القابعة في مكانها التي تتبعها بعينين مرتعبتين دون أن تنبس بكلمة واحدة، لكنها تزداد انكماشا تريد منها الابتعاد عنها وعن البنتين النائمتين، يبدو عليهما الجوع الشديد كالمرأة التي تحتضنهما، كالمكان الذي يعيشون فيه، رغم شساعة المكان الذي لا يعكس رحابته في وجوههن البائسة، ثم أنها تزداد حيرة عمن أتى بها إلى هنا، وتمدّ يديها إليها...

تومئ لها بيديها تعبيرا عن سؤالها عن هذا المكان...

- أأأأأأأأأ.....؟؟

لكن المرأة تحجم عن نطق أي كلمة، تجيبها بنظرات حيرة، تتجول بعينيها في أنحاء المكان، بل تزيد انكماشا خوفا منها كلما حاولت

الاقتراب منها.

شعرت نور بالرعب عندما تذكرت أنها خُطفت من مدينة سوهاج التي ليست فيها الآن، كل الدلائل تدل أنها بعيدة عنها.

- لكن ما هذا المكان؟ وما الذي أتى بها الآن؟ ولماذا؟

ومع رجوعها إلى وعيها عما حدث لها، شيئا فشيئا، تبدأ بالصراخ والنحيب والبكاء، تتحسّس كل نافذة وكل باب، وكل شيء يجعلها تتعرف أين هي، لكن محاولاتها فاشلة وإجاباتها معلقة، أمام صمت هذه المرأة الخائفة، ربما حالتها أشد منها، تأكدت أن هذه المرأة وابنتيها الصغيرتين مخطوفات كذلك، مشهدهن يدل على ذلك.

تتذكّر أنها آخر مرة كانت قد خرجت من عند صديقتها الطبيبة التي تقيم في مركز مدينة سوهاج، حيث كانت تساعدها في عيادتها الخاصة في معالجة حالات الكورونا كل يوم، وتعينها في جهة أخرى في تجاوز الحزن الذي يحاول أن يفتك بحياتها، الطبيبة صديقتها الحميمة التي تفتح لها قلبها وتشاورها في كل أمورها، لكنها عندما خرجت من عيادتها مساء حتى ترجع إلى فيلا عمها، على أمل اللقاء بها في الغد ككل يوم، وعندما دخلت سيارتها المركونة غير بعيد من العيادة، يفاجئها شخص، وقد دخل سيارتها خلسة ويضع على أنفها منديلا به مخدر قوي، تحاول الإفلات والصراخ لكن الرجل الجالس وراءها المفتول العضلات لم يعط لها فرصة الإفلات من قبضته القوية.

بعدما تمكّن من تخديرها وارتخت في مكانها مستسلمة الجسم، أشار الرجل إلى رجل آخر يقف في طرف الشارع الشبه فارغ، مراقبا للمكان حتى يمنع انكشاف عملية الاختطاف من الشرطة ليلتحق به، وتنطلق السيارة إلى مكان مجهول.

حينما تأخرتْ عن الرجوع إلى بيتها، مع وجود هاتفها خارج مجال الشبكة أو مغلقا، أكدت صديقتها الطبيبة لابن عمها همام أنها خرجت من عندها في معنويات مرتفعة بل كانت أسعد أكثر من أي وقت مضى، دون أن تخبرها بشيء غير عادي، ما عدا أن حلما في الأفق قادم إليها بخطى ثابتة.

زاد قلق الحاج أحمد المهدي من اختفاء ابنة أخيه، ولا أحد يعرف مكانها، سأل كل الذين يعرفونها، حتى جيرانها في القاهرة دون جدوى. صرخ همام في المنزل ليلا، وهو يخاطب أبيه:

– أنا أشك في هذا الرجل المدعو عمار، ربما اتفق معها وهربا.

– لا يمكن أن تفعل شيئا كهذا.

– لا أظن، مادام جاء من آخر الدنيا، فلابد أن يكون هناك اتفاق بينهما، وأين هي سيارتها إذن؟

– لا.. لا.. نور لا تفعل مثل هذه الأفعال، لا يمكنها أن تضع وجهي في التراب، إن كان كلامك صحيحا إذن هذه كارثة، لم أظنها المثقفة الطبيبة أن تكون نهايتها هكذا، ومازال جسدا والديها جديدان في التراب، وتتجرأ أن تهرب مع رجل غريب.

ضرب همام كفا على كف، واحمر وجهه حنقا حتى كاد أن ينفجر من الغضب...

– يا لها من وقحة... كيف تجرأ على الهرب مع ذلك الكلب؟!

– لو أراد خطفها، ما كان أتى إلينا برجليه أبدا.

– لا بد أنك حينما رفضت مقابلتهما لبعض، انتقم لذلك الرفض.

ينظر إليه الحاج أحمد بغضب شديد...

– لم يبد كذلك، بل بدا مؤدبا ومتخلقا وكلامه أعجبني.

– أنت دائما هكذا يا أبي تثق في كل الناس من أول نظرة ومن أول جلسة، لكن الناس كلهم مخادعون ومنافقون.

ثم وقف وأكمل حديثه...

– ألم تعرف شيئا عن مكان وجود هذا المجرم عمار والشخص المدعو مرزوق؟

– لا أعرف شيئا عنهما سوى أنهما قدما من القاهرة، يجب أن نبلغ الشرطة.

قاطعه همام بسرعة:

– لا... لا يا أبي، أتركني ابحث عنهما، أتريد أن نكون حكاية للقاصي والداني في المدينة؟ أمهلني بعض الوقت وإن لم نجدها عندئذ نبلغ الشرطة، أتركني أبحث، سأجند رجالنا يبحثون هنا في المدينة قبل أي مكان آخر.

– أنا قلق جدا عليها.

– لا تقلق، لم يمض على غيابها إلا ليلة واحدة سنجدها، أو نجد خيطا يوصلنا لهذا مرزوق.

مضى يوم كامل على نور دون أن تكلمها المرأة، رغم إصرارها على تفسير ما يجري حولها، عن هذا المكان وعنها وعن كل الأسئلة المرهقة والمعقدة والغامضة التي تؤرقها، دون إجابة...

في سكون الليلة الأولى يظلم المكان إلا من ضوء خافت غير قادر

على إضاءة الغرفة، كما لم تضئ أية إجابة ظلمة أفكار نور حتى تعبت من الحركة وضرب الأبواب والنوافذ والصراخ دون جدوى، لا أحد يجيب سوى البحر وفضاء السماء الذي يمتص ذلك الصراخ.

فَتْحُ الباب الحديدي يكْسر سكون الليل، قامت المرأة نحو الباب دون أن تتحرك الفتاتان، تبعتها نور مسرعة تريد الخروج معها من هذا المكان، فارتطمت برجل ضخم، وهو يأخذ بيد المرأة إلى خارج الغرفة ويدفعها من وجهها إلى داخل الغرفة، يمنعها من الالتحاق بالمرأة حتى سقطت على الأرض، وهي تصرخ وتتخبط في مكانها، ثم يغلق الباب وقد دفعها بقوة متفوّها بكلمات إيطالية فهمتها على أنها سباب وشتائم حادة.

عندها عرفت أنها في إيطاليا، وأنّها اختطفتْ... لتنهال الأسئلة عليها مجددا، ما الذي أتى بها إلى هنا؟ ولِمْ؟ وكيف؟

بعد ساعة من الزمن عادت المرأة وهي تحمل أكياس أكل، أقفل الرجل الباب بسرعة حتى لا تحاول نور الخروج أو تندفع إليه محاولة الصراخ مثل المرة السابقة، تعود المرأة متجهة إلى ابنتيها بأكياس الأكل ثم تستلقي منكمشة وهي تبكي في أنين متواصل، تضع ظهر كفيها على عينيها حتى تغطي دموعها وتمسحهما، تتمنّى أن تبتلعها الأرض قبل أن تنظرا إليها ابنتاها.

تفتح البنتان الخائفتان الأكياس بلهفة، بينما تلتهمان ما فيهما بشراهة، وبين كل قضمة وأخرى يرمقن نور دون أن يقولا أي شيء، حتى وقفت الفتاة الأكبر ذات الأربعة عشر سنة بقميص رث ممزق ومتسخ، ووجه حزين سقاه الدمع أياما طويلة، وقفت عند رأسها ماسكة بقطعة خبز وجبن، تضعهما فوق المائدة التي تقابلها، ثم تعود مرة أخرى إلى

أمّها وأختها.

بعد ليلة كاملة على هذه الحالة، وفي الليلة التالية، لم يفتح الرجل الضخم الباب ولم يأخذ المرأة كالليلة التي قبلها، اقتربتْ نور من المرأة التي أظهرت بعض التقبّل لنظراتها، وقد لاحظت تورّما واحمرارا في رقبتها ناتجا عن ضرب، وهي تومئ لها محاولة أن تعرف ما يحدث لهن هنا، وتصرّ على ذلك.

اعتدلت المرأة في جلستها مطأطأة الرأس، تأكدتْ أنها لا يمكن أن تتكلم، فالتفتت إليها لأول مرة استجابة لاستفهاماتها المتتالية الملحة، تحدثها بصوت حزين وخافت مبحوح لا يكاد يسمع...

- اسمي حياة...

قطعت حديثها بتنهيدة طويلة، وزفرات ساخنة تنمّ عن ألم شديد...

ثم أشارت إلى الفتاتين:

- وهاتين ابنتيّ فرح وبشرى، نحن مختطفات منذ أكثر من شهرين، ونحن في إيطاليا، تحديدا لا أدري.

أومأتْ لها نور أنها تفهم ما تقول حتى تكمل كلامها، لتخبرها بالمزيد... وكأنها تقول واصلي أرجوك واصلي...

فسألتها:

- هل أنتِ عربيّة؟

أشارت إليها نور بالإيجاب، وهي تؤكد لها ذلك برفع رأسها من الأعلى إلى الأسفل.

- ما الذي أتى بك إلى هذا الجحيم؟ وما هي قصتك؟

بدأت نور تبكي، تحاول التعبير عن حيرتها وجهلها وسخطها، وعدم قدرتها على النطق.

واصلت حياة كلامها مدركة عدم قدرة نور على الكلام لتجيب عن تساؤلاتها:

– هربنا من الموت، فسقطنا في الأشدِّ من الموت، هربنا من القتل العشوائي في سوريا، حيث لا أحد يملك حياته، الموت هناك يأتي بكل الأشكال ومن كل مكان، أخذوا زوجي الطبيب عنوة من المستشفى إلى أرض المعارك، وعندما هرب منهم انتقموا منا، كانوا يأتون إلينا كل يوم، يشتموننا ويضربوننا بحثا عنه أو أخبار عنه وما في ذلك من تهديد، وفي ليلة من الليالي أخذوا مني ابني عنوة وهو لا يتجاوز خمس عشرة سنة، أخذوه إلى ساحة الحرب بدل أبيه الهارب وانتقاما منا جميعا، قالوا لي لن يعود إليك ابنك حتى يعود زوجك، واصفين إياه بالخائن للوطن...

أيكون خائنا للوطن من يرفض قتل إنسان شاركه الوطن؟!

هناك ليس للموت عنوان... العذاب يتربص بنا في كل ركن وفي كل زاوية من هذا العالم.

شهقت حياة بالبكاء، حينما تذكرت ابنها الذي أخذ بالقوة من بين يديها، فوضعت نور يديها على كتفها مواساة لها، وضمتها إلى صدرها...

ثم أكلمت كلامها:

– بعد وقت قصير اتصل بنا زوجي عن طريق أحد الأشخاص سرا، يخبرنا أنه سيجلبنا إلى إيطاليا، وأنه وجد عملا فيها، وسينتشلنا من

العذاب، خوفا علينا وابنتينا، أما ابننا البكر فتاه في الحرب كما تاه كل الذين ذهبوا جبرا أو اختيارا، لا نعلم الآن مكانه أكان حيا أو ميتا.

الذي يتوه في الحرب لن يعود... حتى وإن عاد!

تتنهد بعمق والدموع لا تزال تتقاطر من عينيها كشلال من الماء... واصلتْ بصوت مرتجف خافت جدا وارتعشت ارتعاشة قوية، ثم قالت:

– لم يعد للحياة قيمة، ولا للعالم أمان.

رغم إشفاقها عليها أصرّت عليها نور أن تكمل حديثها، وهي تومئ إليها مشيرة إلى الباب، تقصد هذا الرجل الضخم الذي يأتي إليها كل ليلة.

اندفعت مرة أخرى إلى نور تضع رأسها في صدرها، تحت نوبات بكاء حادة متواصلة، استمرت لدقائق، حتى ابتل صدر نور من دموعها، وهي تضمها إليها تخفيفا عليها، فانفجرت معها تبكي بحرقة شديدة، وقد اشتمت رائحة كحول ومخدر في جسدها، وشعرت بخفقان قلبها يتصاعد مع اضطراب التنفس...

ثم تماسكت قليلا حتى تستطيع أن تتكلم، وقالت هامسة متقطعة الجمل:

– أنا متألمة جدا... جدا... أنا أعاني... أنا خائفة على بناتي... أخاف أن يغتصبهن ذلك الوحش، إنه يغتصبني كل ليلة حتى لا يمسّهن، وقد هددني بذلك حتى أرضخ له، وحتى لا نموت من الجوع، يأخذني كل ليلة من هنا إلا إذا جلب صديقاته، كان يجبرني على تناول الترامادول وشتى أنواع المخدرات والكحول حتى يستطيع السيطرة علي، ويقوم

بربطي كذلك... أصبحت الآن، أنا من يطلب تلك العقاقير حتى أتحمّل ما أنا فيه من عذاب وموت في المنتصف.

ثم صمتت قليلا...

لوّحت لها نور تعني لها كيف رضيتِ بالوضع ولم تهربي منه؟

– لا أستطيع الهروب، كان يغلق جميع الأبواب والنوافذ، حاولت الرفس وضربه، تحديته أكثر من مرة، لكنه كان أقوى مني، كان يهددني بالسلاح وقتلي بينما كنت أفكر كيف أترك ابنتيّ وحدهما، كنت أتحمل من أجلهما، كان يهددني بابنتيّ إذا رفضت تسليمه نفسي أو إذا حاولت الهروب، كان ينظر إليهما نظرة وحش مرعب.

كلما جاءني يطلبني، أذهب معه وأنا أحترق، أموت كجسد لا روح فيه.

واصلت:

– صرختُ أياما طويلة دون مجيب، الفراغ نهارا وعبثا ليلا، والرعب يحاصرني، أول ما وصلت إلى إيطاليا مع عائلات كثيرة أخرى، كانت رحلة عذاب طويلة مات من مات في الطريق، ذقنا الويلات، مكثنا في العراء وأكلنا الحشائش، مكثنا في بيوت مهجورة أياما نعيش على عطايا القلوب الرحيمة القليلة جدا، حتى جاءني في أحد الأيام هذا الرجل الوحش مع آخرين، وأخبرني أن زوجي أرسله إلينا وجلب معه صورة زوجي ليؤكد كلامه ولكي نصدّقه كذلك، فجئنا معه ووقعنا في الأسر... يا لي من غبية... لكن في أضيق الظروف تتمسك بأيّ شيء، حتى ولو كان شيئا غير مضمون النتيجة، المهم أن نتعلق ولو بالوهم، وصار الوهم الآن قاسيا جدا...

تذكرتْ نور أنّ لها قلم في جيبها، تحسّسته فوجدته، ثم بحثت عن ورقة لتكتب عليها، فوجدت لفائف ورق الأكل على المائدة، أخذتها ثم بسطتها بكفيها، وبدأت تكتب، ثم أعطتها لحياة.

وقد كتبتْ فيها:

– أنا اسمي نور مصرية خطفتُ من مدينتي، أنا خرساء لا أستطيع الكلام، لا أعرف من خطفني ولماذا خطفتُ؟

قرأتها حياة، ولم تجد ما تقوله لها...

قالت لها وعيونها مازالت تجهش بالبكاء، وأخرجت لها صورة عائلية هي وزوجها باسم وأعطتها لها لتراها، قائلة لها:

– أرجوك إذا حدث لي شيء اهتمي بابنتيّ، عديني أرجوك... أرجوك يا نور.

أومأت لها أنها فهمتها، وأشارت إليها تطمئنها بأنها ستفعل ذلك، وأنهن ستخرجن من هذا الجحيم في أقرب وقت.

في المساء فتح الرجل الضخم الباب الحديدي، دخل عليهن الغرفة يحمل أدوات التنظيف، يشير إلى نور أن تتقدم، فقامت حياة تريد أخذ الأدوات منه كما اعتادت أن تفعل حيث تنظف الفيلا ثم يُرجعها إلى بناتها، لكنه رفض وطلب من نور أن تقوم هي وهو يصرخ ويهدد بلغة لا تفهم إلا بعض كلماتها ولكنها كلمات غضب شديد تدل على فقدانه أعصابه وأنه يوشك أن يضربهن أو يؤذي الصغيرات، لكن نور تقبل بذلك وتهدئ من روع حياة وتمسك الأدوات وتنتظر الرجل الضخم أن يدخلها إلى داخل الفيلا، شعرت أنها فرصة لتكتشف المكان، فلا يمكن أن تفقد هذه الفرصة فربما توجد فرصة ما للهروب.

تمشي في ممر ضيق مظلم أمامه ثم يتجه بها إلى اليمين لتجد بابين في جهتين مختلفتين يؤدي أحدهما إلى صالة كبيرة فتنفتح فيها إنارة قوية تضيء المكان، ثم يوقفها بيديه ويفتح لها سترته السوداء الخفيفة كاشفا لها عن مسدس طويل من نوع بريتا ذو الخمس عشرة طلقة محذرا إياها من أي محاولة إثارة مشاكل ما، مشيرا بأصابعه على شكل مسدس في رأسها حتى يخوفها من أي خطأ أو محاولة استفزازه، وإلا فإنه سيقتلها دون أدنى تردّد.

اكتشفت نور أنّها وقعت في قبضة مجرم خطير، وأنها معرّضة للاغتصاب كما فعل بحياة، بدأت في تنظيف الصالة الكبيرة المليئة بالتحف القديمة والتي ترجع إلى عدة فنانين وعلى كل ركن يوجد تمثال روماني، فعرفت أن صاحب الفيلا مولع بهذه التحف وأنه غني جدا، كانت تنظف وتحاول استكشاف المكان جيدا، وحفظ المداخل والمخارج، والبحث عن منفذ محتمل للخارج، بينما تنظف المكان كان هو بدوره يراقبها من بعيد بعيون متحرّشة وهو جالس في الردهة، يضع رجليه على الأريكة يحمل في يديه سيجارة من النوع الرفيع، ينظر إليها ذات القوام الممشوق والجسم الأبيض الجميل والناضجة كتحفة فنية تتحرك، في إغراء لشيطانه الساكن في شهوته، يرى جمالها الملفت كأنه يتحدى كل النساء الموجودات في القصر، تنحني يمينا وشمالا وكلما تحركت كشفت عن لوحة جديدة لم يكن قد اكتشفها...

ولكي يستفزها، ناداها، وهو يبتسم ابتسامة طمع واشتهاء وخبث:

– نور.. ههه... ممم!!

التفتت إليه بنظرة حادة مستغربة وغاضبة ومتحدية وشرسة، مستغربة أنه يعرف اسمها، مما يؤكد لها أن خطفها لم يكن عبثيا، وهي

دائمة التفكير في حيلة تخلصها من وضعها الحالي، وتخلص حياة وابنتيها من العذاب الذي يعانونه.

بينما هي تنظف الأريكة تلاحظ اللوحات الفنية الكبيرة الرائعة التي تأخذ الألباب، ويشد انتباهها لوحة فتاة راقصة، فتقوم بمسحها برفق وهي تتأملها وتنظر إلى مكان التوقيع أسفل اللوحة فتكتشف أنه توقيع عمار فتندهش من ذلك، وتفكّر في داخلها...

– ما الذي أتى بلوحة عمار هنا؟ ومن هذه التي رسمها؟ ما علاقة خطفي بعمار؟ أين هو الآن؟ أهو بخير أم أنه مخطوف مثلي؟ ربما قتلوه؟ ربما هو حي؟ أهو في مصر أم هنا؟

بارع أنت يا عمار، لوحة تكاد تنطق، الفتاة المرسومة تكاد تقفز من اللوحة، لكن من هذه الفتاة الراقصة؟

توالت عليها الأسئلة من كل جهة بلا إجابة ولا رد واضح بل تزيدها حيرة وضياعا، حتى نست أنها بين خاطف لا يرحمها ولا يتضح شيء من تصرفاته أي مهرب تتعلق به خاصة أنه يراقب كل حركاتها.

أطالت النظر في اللوحة حتى وقف الرجل الضخم وراءها يريد أن يضع يده عليها، يريد مسح يديه على ظهرها إلى أسفله، حتى نهرته مبتعدة عنه، وواضعة عصا المكنسة في وجهه محذرة إياه من الاقتراب وقد شُدّتْ أعصابها وتصلب جسدها وبرزت عروق رقبتها وارتفع صوتها وترقرقت عيونها ثم انهمرت دموع كثيرة وهي ترتجف صارخة، حتى فزع منها وتراجع، وانتزع مسدسه غاضبا من مكانه ووضعه على رأسها وعيونه تكاد تنفجر من الغضب وقد أمطرها بوابل من الإهانات والتهديدات ردا على التحدي الذي أظهرته له.

– خرساء حقيرة... لعينة... كلبة.

ثم بصق على وجهها.

مسحت بصقته من على وجهها... عندها دفعها حتى سقطت على الأرض وانتشلها وهو يكرر كلمات الشتم والسب من ذراعها، يرجعها إلى محبسها مع حياة وابنتيها، لتدخل باكية وهي تعانقها ويتعانق الجميع في بكاء عميق وطويل.

لا يستطيع الرجل الضخم أوبالدو إيذاءها أو الاقتراب منها، لأن أوامر روكو تقضي بذلك، وإذا خالفه فإنه يعرض نفسه للقتل لا محالة.

الفصل (٦)

للورد أشواك

يستيقظ عمار بعد غياب عن وعي امتد لأيام، يشعر بثقل في رأسه، وكأنّ جسما ثقيلا يحمله على كتفيه، ثقل عام في كل جسده، يبذل جهدا حتى يتحرك من جموده، يفتح عينيه بصعوبة كبيرة، فينظر حوله فإذا به يكتشف أن هذا المكان يعرفه، يجد صعوبة في التذكر، ثم يتذكر أنه منزل صديقه مراد، يرى رجلان داخل المنزل يلمحانه من بعيد ويظهران اشمئزازا ونظرات استعلاء، يلبسان بذلتين سوداوتين أنيقتين، يراقبانه من بعيد دون أن يكلمه أحد، ثم انتزعا من تحت إبطهما مسدسين، دلالة على تهديده بألاّ يفعل شيئا غبيا أو يتهور في حركة ما، ومع استيقاظه تتهاطل عليه الأسئلة التي لا نهاية لها...

عن منزل صديقه مراد الذي طرد منه... عن خاطفي نور وخاطفيه... كيف وصل إلى هنا من مصر إلى إيطاليا؟ أين نور؟ والسؤال المهم هو من وراء كل هذا؟ وماذا يريد؟

بعدما استيقظ بدأ بالصراخ وسؤال الرجلين بأسئلة متتالية، فقاما بتثبيته على الأريكة، يضعان مسدساتهما في أماكن مختلفة من جسمه، طالبين منه السكوت، وإلا فإن مصيره القتل والرمي في الشارع مع نور.

عندما سمع اسم نور زاد غضبه، وبادلهم السباب والشتائم...

– أنتم من اختطفتموها أيها الأوغاد؟ ماذا تريدون منا؟ أين هي؟

قاطعه أحدهما بأعلى صوته:

- إذا أردت ألاّ نؤذي نور فابق هادئا أيها الوغد

صمت عمار، وأحسّ أنه في ورطة كبيرة، كيف لا يكون كذلك ونور مختطفة في يد خاطفين قد يفعلون لها أي شيء، قد يؤذونها، وشعر أنه هو السبب في كل ما جرى وما قد يجري لها لاحقا.

خاطبهما وهو غاضب:

- ماذا تريدون منا الآن؟!

- ستعرف بعد قليل ماذا يريد منك الزعيم، اهدأ وإلا فستتأذى نور وستخسرها إلى الأبد.

- كيف جئتم بي إلى هنا من مصر؟

- نحن إذا أردنا أن نأتي بك، نفعل ذلك بسهولة ولو كنت في بطن أمك.

- ماذا تريدون مني؟

اقترب منه أحدهما والشر يتطاير من عينيه موجها له إشارة بسبابته:

- قلت لك اسكت وكفاك ثرثرة، إني أحذرك لآخر مرة، إن واصلت هكذا ستتأذى نور، وتتأذى أنت كذلك.

هدأ عمار من روعه وعلم أنه تورط في عصابة إيطالية دون أن يدري، وهو الآن في أكبر مشكلة يعيشها في حياته، وتسبب في توريط نور كذلك... لكن السؤال الأهم الذي يريد أن يعرفه هو لماذا كل هذا؟!

رفع أحدهما الهاتف، شكّل أرقاما ثم وضعه على أذنه اليمنى:

– لقد استيقظ... نعم... نعم... حاضر.

ثم قطع الاتصال ونظر إلى عمار قائلا له:

– سيأتي من يفسّر لك الأمر.

لم تمض إلا ساعة حتى دقّ الباب، فتحه أحد الرجال، وإذا به يتفاجأ في كون الداخل هو أوبالدو، وهو مبتسم الوجه ابتسامة خبث عريضة.

– أهلا بعودتك يا عمار.

ليقوم عمار من مجلسه في ثورة من الغضب محاولا ضرب أوبالدو، فيصده الرجالان بعنف، وقد انهال عليه بالسباب والشتائم...

– أنت هو الوغد الذي وراء اختطافي؟!

انفجر أوبالدو ضاحكا، وسيجارة من النوع الرفيع بين شفتيه، وردّ:

– ههه... ههه... في الحقيقة ما أنا إلا أحد رجال الرجل الكبير روكو، اِهدأ وإلا ستؤذي نفسك ونور كذلك.

– ماذا تريدون مني أيها الأوغاد ورئيسكم الوغد هذا؟ أين هي نور؟

– ههه... ههه... توقف عن الأسئلة، نور عندي لا ينقصها شيء... إلا رؤية حبيبها.

– تكلّم ماذا تريدون منّي؟!

وقف أوبالدو يتجول في المكان مشكلا دائرة على عمار وقد ثبته الرجلان بسلاحهما:

– رئيسنا الزعيم روكو يريد منك عملا صغيرا تقوم به لأجله لآخر مرة مقابل إطلاق سراح نور ومبلغ من المال، ثم سيساعدك في السفر

إلى أي وجهة تريدها، إنه يحب الرسامين الموهوبين مثلك، لقد تفاجأ من دقة رسماتك وجمالها، لذلك هو الذي جاء بك من مصر بعدما علم أنك تريد أن تسافر من هناك إلى بلدك، شخص مثلك يجب أن يكون محل اهتمام، والاهتمام الذي يوليه لك الزعيم روكو لن تجده في مكان آخر.

هذا السر الذي أخبر مرزوق ألا يقوله لأحد، شعر بالغباء عندما وثق بأحد رجالهم في مصر، يبدو أن يدهم طويلة جدا...

التفت إليه صارخا:

- ألا ترون رساما إلا أنا؟ أأنا الوحيد الرسام في هذا العالم؟! لماذا تدخلون نور في الموضوع؟ إنها مريضة، كيف تجرؤون على إيذائها؟

- تأكد يا عمار إلى حد الآن لم نؤذها، لكن لن يدوم الأمر إذا لم تستجب لما نريده منك.

انتفض من مكانه، نظراته تزيد حدة تجاه أوبالدو، قائلا:

- إياكم أن تلمسوا شعرة من رأسها، سأقتلك بيدي...

انفجر أوبالدو ضاحكا:

- هههه... لا تقلق لن نفعل لها شيئا، فقط اِفعل ما نريده منك، يا صديقي لست في وضع يمكنك التهديد فيه، فأنت في وضع غير قانوني ولا تملك مالا ولا وثائق ولا أي شيء، تحاصرك الكورونا، وكل أبواب العالم مغلقة، لا أحد سيسأل عنك ولا عن حبيبتك نور، أنتم في أضعف موقف.

- لا أريد منكم شيئا فقط دعوني وشأني، دعوني أهيم وأحل مشاكلي وحدي واتركوا نور وشأنها.

– يمكننا فعل ذلك بشروط.

– تكلم، ماذا تريدون؟

– الرئيس روكو يطلب منك رسم لوحة له، وبعدها سيطلق سراحك وسراح نور مع هدية لكما.

– وفّر هديته لك.

صمت عمار محاولا التركيز في الكلام الذي قاله أوبالدو، شعر أنه حقيقة في وضع لا يحسد عليه، حيث بدأت بعض الأسئلة تجد الإجابات، فقد فهم أن مرزوق هو من أخبرهم مكان سكن نور، فلا أحد غيره يعرف سكنها إلا هو وقد ائتمنه على سره، لكن ربما تكلم مع أحدهم، فخطفوا نور قبله ثم خطفوه هو حتى يضعونه في الأمر الواقع...

لم يكن يعلم أن عيون الرئيس روكو لم تفارقه منذ أن رسم اللوحة الأولى التي طلبها، يشعر باستغلال وجوده في موقف صعب، ثم يقحمون حبيبته في المشكلة ليتحكموا فيه ويضغطوا عليه كما يشاؤون، مرة تهديدا بإيذاء نور وإغرائه بهدية، ولأجل الخروج من ورطة هذه العصابة التي استغلت وجوده في هذه الظروف لتطلب ما تريد، فليست القضية أنه رسام ماهر رغم أنه كذلك، ولكن كونه في موقف ضعف، جعلهم يستغلونه أشدّ استغلال.

وفي غمرة تفكيره العميق، يقطع عليه أوبالدو حبل أفكاره، فيناديه:

– أنظر إلى تلك الشاشة.

ذهب أحد الرجال إلى الشاشة وقام بتشغيل التلفزة، وقد ظهر فيها الزعيم روكو مرتديا قميصا أسودا أنيقا يقف وسط صالة كبيرة ووراءه

لوحات فنية كبيرة...

ابتسم روكو قائلا:

- أهلا صديقي، لقد اشتقت لك، الأيام التي قضيتها في مصر كانت طويلة بالنسبة لي، كنت معترضا على ذهابك لكن إصرارك غلبني، فالحب أقوى ما في هذا الوجود... هههه..

طلبتُ من صديقك مراد أن يمنعك لكنه رفض، لقد جاء في صفك رغم خيراتنا وفضلنا عليه، لم أكن أعتقده هكذا، بعض الناس ينسون الجميل الذي يُقدّم لهم، حتى أنت أردت السفر من هناك والهرب من قبضتي، لكن الحب الذي غلبتني به أول مرة الآن أغلبك به، كما تعلم أنا معجب بك كرسام وعاشق وفيّ...

أما عاشق وفيّ، فلأنك تفاديت حب ابنة أخي ماتيا رغم أني معترض على ذلك أصلا رغم أنها يا صديقي مجنونة بك، كانت تذوب فيك، إنها غبية جدا، كيف لا تعشق غيرك، كانت تحب مراد بدون أي سبب، والآن مراد في الجحيم، ثم تعلقت بك أنت، وأنت فضلت عليها نور، أنتم لا تحبون إلا أنفسكم، لكن لا عليك... فقد أبعدتني عن لب الموضوع.

- كل الأمور التي تكلمت عنها لا تهمّني، أدخل في الموضوع.

انفجر ضاحكا:

- ههه... ههه... حسنا... أحبّ الأشخاص العمليين جدا.

أشار إلى ورائه ملوحا بيده اليسرى ثم قال:

- أُنظر ورائي، أملك خمس لوحات فنية زيتية من روائع الفن التشكيلي، رسمها فنانون كبار مثلك، وقد كافأتهم أكبر المكافآت،

والآن لم يبق إلا لوحة سادسة أكمل بها السلسلة التي أريدها، وقد وقع اختياري عليك لأنك الأفضل.

قاطعه عمار:

– وقع اختيارك عليّ لأنني في موقف ضعف أليس كذلك؟

– لا.. لا، أرجوك أنت لست ضعيفا، أنا لا أتعامل مع الضعفاء، المهم أنت رسام والرسام قوي بفنه دائما... هههه.

– ماذا تريد منّي؟!

– أريد أن ترسم لي لوحة الطفل الباكي للفنان جيوفاني براغولين الذي اسمه الحقيقي برونو أماديو، واسم الصبي المحظوظ هو دون بونيللو، سنوفر لك كل الأدوات والمعدات التي تريدها، سيأتيك الأكل وكل الملذات التي تطلبها، المهم لا بد أن يكون العمل رائعا كعادتك، وهناك صديق لي سيراقب اللوحة إذا أتقنتها فستنال مرادك، وإلا فإنك ستضع نفسك ونور في ورطة كبيرة.

أوقفه عمار متعجبا...

– لكن هذا العمل يتطلب وقتا طويلا.

– خذ وقتك، وصدقني يا صديقي سنعتني بحبيبتك مادمت في كلمتك.

هي كلمات مبطّنة بالتهديد، وقد وضعه روكو في ركن ضيق، لا حل له سوى تنفيذ أوامره، وإنقاذ نور من ورطة لا دخل لها في تفاصيلها.

– لكن عندي شرط.

ضحك ضحكة هستيرية طويلة فيها كثير من الاستهزاء...

– ههه ههه ههه ... في وضعك السيء وتريد الاشتراط.

ثم صمت قليلا يسترد أنفاسه من الضحك، ونظر بغضب إلى عمار فأكمل كلامه:

– أريد رؤية نور قبل أن أبدأ أي شيء.

– أوك، لا مشكلة في ذلك، أوبالدو سيقوم بالواجب، ستراها.

لم تخلق البندقية لتكون سجنا للمحبين، لكنها الآن هي كذلك صارت متاهة لهم، بل أصبحوا في فوهة البندقية، لا يستطيعون الخروج منها، أفرغت الأزقة الضيقة من العابرين، واختفت من الجنادل أحضان العشاق، لا يوجد من يطعم طيور الحبّ في ساحة سان ماركو، تتوقف ماتيا عن رقصاتها، ويتوقف العازفون عن آداء نغماتهم، يعم السكون والحزن والفراغ، ليمكّن للإسعاف أن يمر لأخذ المرضى والموتى، فيكون البكاء ونحيبه النغمة السائدة، يتزايد الحزن في كل أنحاء البندقية، وتهدأ أمواج البحر حزنا على ما أصاب البشرية...

لكن المياه بدت أصفى من ذي قبل...

تبدو البندقية واسعة أكثر، وقد غاب سواحها، ثم يجبر الناس على تغيير نمط حياتهم، على تغطية وجوههم، على البقاء في منازلهم والابتعاد عن بعضهم البعض، على أشياء لم يتعودوا عليها، سيتذكر من نسى الموت الذي هو أقرب رفيق، وأكثر زائر للبيوت، فليس المكوث في البيت إلا شبه هروب من شبح لا يعترف بالجدران، ببساطة لأنه خاطف غير مرئي.

يموت العجوز روبرتو بالكورونا سائق الجندول المغرور، بعد أيام من المعاناة، كان مقاوما شرسا للمرض، لكن الانتصار دائما لطويل

النفس، خنقه في المستشفى رغم أجهزة التنفس الاصطناعية التي تحيط به التي لم تتمكن من إيقاف الموت حينما يريد استلال روح ما.

عندما تصيب المدن المصائب لا يبقى فيها إلا أهلها، وعندما يصيب الإنسان مكروها لا يبقى معه إلا من يحبه، كذلك البندقية يختفي منها السواح، ويختفي من ساحاتها من اعتبروها مجرد موقع سياحي يستحق لحظات التمتع ثم تأتي لحظة الرحيل، مع أن الرحيل يمكن أن يكون إما فرحا أو حزنا، في هذه اللحظة فقط نتعرف على الأوفياء من المخادعين.

أضحى الاقتراب بين الحبيبين خيالا ووهما كبيرا، وكأنها اللعنة التي تطارد عمار ونور، وتجعل اللقاء صعب المنال، بل صعب التخيل، هي الكورونا تريد منع الالتقاء، ومنع العناق، لكن الحبّ لا يخشى الكورونا ولا يرتدي كمامة، كل المخاطر تتلاشى أمام زحف المحبين.

التقط أوبالدو فيديو صغير جدا لنور حتى يثبت لحبيبها أنها بخير وأنها عنده، وليمتنع عن التفكير في خلق المشاكل التي قد تخطر بباله.

الحب قوي وعنيف، وضعيف في نفس الوقت، رغم الحب الجامح الذي يسكن قلبيهما، والجموح الذي يتجاوز كل الصعاب، لكنهما ضعيفان في بُعدهما، وهي فرصة روكو الرئيس، أن يوقد هذا الحب بعض الانتصار والمال، يوقد على شقائهما بعض الفرح، ويتمنى أن يطول الشقاء حتى يطول فرحه!

ادعت المافيا أنها تحب الفقراء ولا تحب حزنهم في هذه الظروف الصعبة، لا يمكن الا مساعدتهم بكل الأشكال، حيث بدأت توزع لهم المواد الغذائية والمواد الصيدلانية وتوفر لهم أسرة في مستشفيات لأصدقاء لها، وأصبحت تضع على أبواب منازل الفقراء ما يحتاجونه من غذاء، تتهمها الحكومة أنها تستميل الناس ليتعاطفوا معها

وتستغلهم مرة أخرى، فالمخدرات تجارة تحتاج لكل شخص في هذه الأمة.

أُجبرت نور على الالتحاق بمستشفى خاص خصص لمصابي الكورونا، كانت المافيا تساعد المرضى بزيادة أعداد الأطباء والممرضين من أجل التغلب على هذا الوباء الذي لا يفرق بين الأغنياء والفقراء، لكنه على الفقراء أشد قسوة وشراسة.

قبل أن يأخذوا نور إلى المستشفى أخبروها أن عمار محتجز عندهم وإذا فرت فمحكوم عليه بالموت، لذا عليها أن تخدم المرضى في المستشفى تحت مراقبتهم، وألا تحاول الهرب أو تبليغ الشرطة لأن الموت سيكون مصيرها ومصير حبيبها الذي لا تعرف مكانه، فهي لن تتجرأ ولن تجازف به وبمصير حياة وابنتيها، ستسخر للعمل مع الطاقم الطبي، وأي محاولة هروب منها نهاية لكل شيء.

خرجت من أسر أوبالدو رغم أنها لا تريد ذلك لأجل حياة وابنتيها، والعذاب الذي يعيشونه كل ليلة بل كل لحظة، لكنها لا يمكن أن ترفض أمام تهديد السلاح الذي وجهه أوبالدو والقوة التي تعامل بها الرجال الذين جلبوها إلى المستشفى، محذرين إياها من أي حركة غير مقبولة، سيراقبها رجل كل الوقت الذي تكون فيها المستشفى كممرض يرافقها في كل تدخلاتها حتى لا تهرب، معتمدين على أنها خرساء، لا يمكنها الكلام ولا أحد يعرفها هنا وإذا أصيبت بالكورونا فلا ضير أن تموت كما يموت جميع الناس.

لقد وضعوها في مواجهة الكورونا، ستجابه هذا الفيروس اللعين الذي ذاقت مرارته، ستسمع سعالهم، وتشعر بآلامهم، وتتعذب كما يتعذبون.

التحقت نور خائفة بمستشفى كبير ذو ثلاثة طوابق، مجهز بأحدث التجهيزات الصحية، به مئات الأسرة التي خصصت لمرضى الكورونا، تحت حراسة مشددة لا تسمح خروج أحد إلا لدفن الموتى أو حرقهم.

يصبح الناس متشابهين في مواجهة الخوف، يلبسون نفس اللباس ونفس الروح، ينثرون نفس الدموع، ويدفنون في نفس التراب، ويصرخون نفس الصراخ، التشتت لم يكن طويلا حتى جمعت الأزمة ما تشتت من الأفكار.

البشر في النهاية الذين كانوا تحت سماء واحدة يجب أن يضمهم تراب واحد.

في مثل هذه الظروف لا أحد يعبأ بأحد، كل شخص يتألم وحيدا، حتى ولو كان جزءا منك لا يمكنك أن تقاسم معه شيئا من الألم، في أحسن الأحوال ستظهر له بعض الدموع الساخنة، شفقة على حاله البائس، وتبتعد عنه وتحرمه احتضانك لآخر مرة وتقبيلك، ليس كرها ولكن حبا، فقد صار المحب يُبعد عنك ليُثبت لك حبه، صار البعد حبا والقرب حقدا، لذا لا زيارات في هذا المكان المغلق الخطير الذي لا يرحم أي خطأ بسيط.

يكتظ المستشفى بالمصابين وتنبعث رائحة الأدوية والموت معا في كل غرفة من غرفها، لا يوجد في المستشفى إلا المرضى والأطباء، ولا يهم الطبيب من يكون، فالإنسانية لا دين لها ولا لون لها، سوى أنها ستتوحد في مواجهة جائحة لم تنظر إلى الأديان و لا إلى القوميات، ولا إلى الأوطان، ولا أي فروقات لغة أو ثقافة أو أي شيء آخر، فإما ينتصر نداء الموت وإما ينتصر نداء الحياة، لا شيء أصعب من مواجهة عدو غير مرئي، عدو مجهول زاحف في كل مكان، المتواجد

بين أرجل المهرولين، و على ألبسة الناس، وفوق موائد الأكل، وعلى قشور الفواكه، وعلى أكتاف الآباء، وفي أحضان الأمهات، وفي أوراق الشجر، وعلى أجنحة الطيور، وعلى شفاه النساء، وفوق صدورهن، وعلى أيد الرجال، وفي كل مكان.

في خضم الفوضى السائدة في المستشفى تدخل نور وتستقبلها مسؤولة الجناح فتعطيها اللباس الواقي وقفازات وكمامات دون كلمة واحدة، ليس هناك وقت ولا حاجة ولا لذة للكلام، سوى أن تخبرها بالغرفة التي ستلتحق بها مع مجموعة من الأطباء والممرضين، وتعطيها شارة طبيبة دون أن تتكلم معها، تنسحب نور إلى قاعة مخصصة للتعقيم لتقوم بارتداء لباس لا تدري في أي يوم ستتمكن من نزعه أو فعل شيء ما.

تدخل الغرفة الكبيرة لتجد ستة أسِرّة وطبيب واحد مع ممرضة منهمكان في رعاية المرضى الستّ، وفور دخولها يوجهها الطبيب دون أن يتكلم مطلقا سوى الإشارة إليها في النظر في حالة العجوزين الموجودين في الركن الأيمن وهما زوجان في حالة متقدمة من الكورونا، تقوم نور بقراءة اللوحات الإرشادية الموجودة في جهة القدمين، الرجل اسمه فيتوريو، عمره خمسة وسبعون عاما نتائج التحاليل تتجاوز نسبة ٧٠٪ من كورونا، التهاب حاد في الرئة، وجود جميع الأعراض الحادة الخاصة بالفيروس، أهمها صعوبة التنفس، ضغط مرتفع يتم التحكم فيه بواسطة الأدوية، تاريخ الدخول قبل عشرة أيام، أما المرأة وهي زوجته اسمها إيزابيل، عمرها ستة وستون عاما، نفس الأعراض تكاد تتطابق.

تقيس الضغط لتجده مستقرا نوعا ما، وحرارة الجسم مقلقة، تسعة

وثلاثون لكليهما، ملامحهما تختفي وراء الأقنعة الواقية، وأجهزة التنفس الموصلة بجسديهما النحيفين، وأكياس المحاليل الوريدية معلقة قرب الأسِرّة.

ثم تتجه إلى باقي المرضى الموجودين في الغرفة، وتراقب حالتهم بدقة متناهية، تنخرط في مأساتهم وتنسى مأساتها التي جاءت بها إلى مكان لم تتخيل نفسها أن تأتي إليه يوما ما، ربما كانت تأمل أن تأتي هنا لقضاء شهر العسل، لا إلى تذوق مرارة في أجمل الأمكنة في العالم، لم يكن المرض يتراجع، كان زاحفا غير راحم لأحد.

تتنقل نور من سرير إلى آخر كحمامة السلام التي تحمل غصن الزيتون، بدون راحة، تتعرق وتشعر بالآلام الشديدة في كل أنحاء جسمها، لكنها تقاوم كل ذلك، بالرغم من أنها تحاول أن تتجاهل أصوات السعال والأنين والآهات التي تجاوزت مرحلة الإزعاج فالجميع بين صراخ وبكاء ونعي، تتداخل كل المشاهد لكن المشهد كله تحت سيطرة الكورونا، تأخذ من تشاء وتترك من تشاء.

في لحظة سكون وفراغ نادرا ما تأتيها، بعد أن تجوّلت على كل المرضى تقف نور تراقب العجوزان، إيزابيل وفيتوريو، الأخير يحمل في يده اليمنى المتجعدة البيضاء الرقيقة جدا صليبا صغيرا، يتلو صلوات لا يسمعها إلا ربه، ويمد يده اليسرى إلى زوجته، يلامسها ويمسك بها، وكأنهما يريدان الصعود مع بعض إلى السماء، لكن نور تقف وتضع يدها على كتفه، تواسيه في مصابه، وفي اللحظة ذاتها تتذكر والديها اللذان فارقاها منذ فترة غير بعيدة، تقف طويلا لتغوص في ذكراها الحزينة، فتسقط من عيونها قطرات دمع ساخنة، ليفتح العجوز عينيه على وقع لمساتها، وينظر إليها مقدرا لها شعورها تجاهه، لا يظهر من

المرضى والأطباء إلا العيون، صارت لغة العيون تحكي المأساة والفرح، تحكي الأمل والبشرى، الكل ينظر إلى الكل في ذهول كبير لا حد له.

ولتتجنب أسئلة الأطباء والطبيبات، كتبت على الشارة أنها خرساء ولا تستطيع الكلام، حتى تتفادى الإحراج المتكرّر، وتستعمل الورقة والقلم في كل تعاملاتها مع الأشخاص، وتنتظر فرصة ما، كانت تتمنى أن تستطيع الكلام لتواسي كل المرضى، لكن عملها الدؤوب لاحظه الجميع، إذ لا تأخذ إلا قسطا قصيرا من الراحة وأصبحت تتجول حتى في الغرف الأخرى تساعد بقية الأطباء، تكب الدموع كلما صعدت روح إلى السماء، وتبتهج إذا أفلتت أخرى من قبضة الموت، زادت حرصا على حرص اتجاه العجوزين تعويضا عن غيابها عندما احتاجها أبويها اللذين ماتا بين يديها، لا تريد أن يموت هذان الزوجان الجميلان أمامها... لا تريد تكرار المعاناة، فمعاناة واحدة تكفي..!!

بينما تشتغل بكل نشاط لخدمة المرضى، وتنسى التفكير في حياة وابنتيها، يحدث أن تكون قرب طبيب تساعده في حالة حرجة تستدعي إنعاش قلب طارئ، حتى تمكنا من إعادة التنفس لرئتيه، واستعادة نبض قلبه، فقال الطبيب إثرها:

- الحمد لله.

فانتبهت نور لما قال، ركزت على بطاقته، فرأت صورته التي على صدره واسمه، فتفاجأتْ أن الصورة تشبه تلك التي رأتها عند حياة، فأرادت أن تتأكد من أنه فعلا زوجها وليس شبيها له، فكتبت له دون أن يشعر أحد على ورقة بيضاء...

- هل أنت سوري، هل أنت باسم؟

فرد عليها، قائلا:

- أجل، كيف عرفتِ؟

أشارت له أن يتبعها إلى مكان بعيد لوحديهما، وأخبرته كتابة بكل ما رأت، لم يتمالك نفسه، شعر بثورة غضب تتقد في جسده وصار يلتفت في كل الاتجاهات ويلوح بيديه لا يدري ما يفعله، يضرب المائدة بقوة، عائلته هنا وهو لا يدري بذلك ويعمل لدى الرئيس روكو المخادع، الذي خانه هو وأوبالدو الخبيث الكلب، بدأ يشتم في كل اتجاه، ويسأل نور عن حالتهن، بينما تطمئنه هي وفي نفس الوقت تحثه على الإسراع في إنقاذهن، رغم أنها لم تخبره بواقعة الاغتصاب الذي تعرضت له زوجته، وأخبرته بما حدث لها من اختطافها إلى غاية اختطاف عمار، ثم قامت برمي الأوراق التي كتبتها في دورة المياه.

أخبرها أنه سيحاول الخروج من هذه المستشفى بأي طريقة اليوم قبل الغد، وألا يثير شكوك أحد، ويطلب مساعدة صديقه كريم للانتقام من خيانة أوبالدو وتجرئه الإساءة إلى عائلته، دون أن يقول لأحد ما يريد أن يفعله وهو الخروج من المستشفى فورا في أقرب فرصة، وأن يساعدها في الخروج من ورطتها هي كذلك.

عندما وجدته شعرت أنها ارتاحت بعض الشيء من حمل ثقيل كان على عاتقها، وتحول الآن على عاتق باسم، الذي من اللحظة التي أخبرته بها طار عقله كي يجد منفذا يخرج منه إلى خارج المستشفى دون أن ينتبه رجال روكو، وستنتظر بشغف خارق انتهاء فجوة البعد، بيد أن الفجوة اتسعت وابتعدت عن أهلها في مصر.

تشعر حياة باقتراب الموت منها ومن ابنتيها بعد أن زاد طيش أوبالدو تلبية لشهواته الشيطانية المتواصلة، في الوقت الذي شعرت بشيء من الأمل قد تسرّب إليها بوجود نور، لكنها اختفت كلقطة جميلة في

كابوس مزعج.

في ليلة مشؤومة يفتح أوبالدو أقفال الباب الحديدي، فارتعدت فرائسها من قدومه وفرائس بشرى وفرح، ازددن انكماشا لعلهن يهربن من وحش لا يرحم، انكماش من هذا العالم الذي وضعهن في أسوأ موقف في حياتهن، لأنه أسوأ من الموت، وأسوأ ما تقع فيه الأنثى، اعتقدت أنها فرّتْ من الموت فوقعتْ في الأشدّ منه.

يحمل المسدس في يده اليسرى، ويده الأخرى تحمل المفاتيح وقارورة جعة، يشير عليها بسبابته أن تقوم بدون أن ينبس كلمة واحدة، تقوم من مكانها، تتملص من أيادي بنتيها دون أن تريد ذلك، وخدودهن ممرات لدموع صامتة، وأنين لا تسمعه إلا الأم المكلومة، لكنها تتراجع بعد أول خطوة، لتقبّلهن في جباههن وكأنها تودعهن، فتنهمر دموع أخرى، فصرخ أوبالدو عليها حتى تسرع في الخروج، حتى أصابهن الذعر من صراخه، خرجت أمامه، وهو يسير خلفاها يتأملها بخبث ضاحكا يحتسي القارورة ويبتسم لخروجها إليه، ويشير إليها أن تتوجه إلى الطابق الأول حيث كان كل ليلة يقوم بإخضاعها لنزواته، ثم يعيدها إلى السجن مع بعض الطعام، تمشي ببطء شديد، وهو يحثها على الإسراع، ويخبرها أن هناك مفاجأة لها الليلة لم تتعود عليها، فإذا بها تجد امرأة كأنها رجل أو رجل كأنه امرأة، يرتدي لباس النساء مستلقٍ على السرير، وأوبالدو خلفها حتى لا تهرب أو تقوم بشيء غبي، حتى يمكنه السيطرة عليها، وقد وضع قرب السرير زجاجات خمر وعقاقير الترامادول وحبوب تخدير، أظلمت الدنيا عليها، لم تكن إلا مسألة وقت، لم يكن لها أن تصبر طول الوقت، يجب أن تقتل هذا الوحش ورفيقه، الموت صار هو المفر الذي سترتاح فيه، لكن عليها أن تفكر كيف تقتلهما معا وتخرج من هذا الجحيم الذي لا تضمن فيه سلامة

ابنتيها لاحقا، فطلبت منهما أن تذهب إلى المرحاض الموجود قرب نفس الغرفة التي هم فيها، وابتسمت ابتسامة الموت الأخيرة، لكي تضمن ثقته وتنفلت من مراقبتهما وتنفذ مرادها، سمح لها أوبالدو بالذهاب وهو يضحك ملء شدقيه، أجابته بابتسامة أخيرة تطمئنه بقبول هذه الليلة الحمراء دون قيود.

تنسحب بهدوء تحت نظراتهما، تدخل المطبخ بسرعة، تلتقط سكينا كبيرا حادا، تعرج على المرحاض تمويها، ثم تخرج بسرعة نحو غرفتهما، تحمل السكين وراء ظهرها، فتجدهما مستلقيان نصف عراة يتبادلان القبلات وينظران إليها، تميل إليهما في إغراء يشتت انتباههما، في الجهة التي يتواجد فيها أوبالدو عاري الصدر وقد أبعد المسدس عنه، رفعت السكين إلى أعلى بحركة خاطفة في وجهه، وأجهزت على أوبالدو بضربة عميقة في صدره تلتها رشقات متتالية بسرعة لم يستطع تجنّبها وهو في وضع استلقاء مع المثليّ الذي تجمد في مكانه، والذي نال طعناتها الغاضبة التي شملت جسده أيضا، رغم محاولاتهما ردّ السكين بيديهما، فتتلقى مع كل طعنة لكمة منهما، لكن السكين الكبير تلطخ بدمائهما، والصراخ عمّ المكان، ليتلوى أوبالدو ويتقلب في فراشه متوجعا يريد الوقوف ولا يستطيع، فرمت حياة السكين من يديها من هول المنظر بعد أن سكن الرجل الآخر ميتا وقد سقط من السرير، بينما تقف في مكانها فزعة من المشهد أمامها، وتقوم بتلقف المفتاح تريد الهرب مع ابنتيها، فيتمكّن أوبالدو من مسدسه بصعوبة بالغة، وبينما تتجه نحو الباب للخروج يطلق رصاصة تستقر في ظهرها، لتشهق شهقة الموت الأخيرة وتنزلق مع ظهر الباب جثة هامدة، دون أن تتمكن من الخروج، دون أن تحرر بناتها، ودون أن يتحرك أحد منهم.

*****

تمكّن باسم وكريم من الخروج ليلا من المستشفى، وهما ملثمين ومموهين بألبسة واقية لا تظهر إلا عيونهما، توجها مباشرة إلى البيت الذي يوجد فيه أوبالدو وعائلته، كان باسم متشوقا وغاضبا في نفس الوقت، فتحا الباب بقوة واتجه باسم نحو الغرفة التي يشك في وجود ابنتيه وزوجته فيها بعدما تفقد كل الغرف، قام بتحطيم القفل بواسطة معول من حديد، فانفتح الباب على البنتين، ومن فرط المفاجأة تجمدتا في مكانهما، وهما لا تصدقان ما تريانه أمامهما، أبوهما في مواجهتهما، لكنهما تكذبان ما تشاهدانه، يتقدم إليهما باكيا، وقد انطلق بكاؤهما وهما تستغيثان صارختين.

– بابا... بابا... بابا... لقد اشتقنا إليك، نحن خائفتين أرجوك بابا خذنا من هنا.

– أنا كذلك يا ابنتَي، لقد اشتقت لكما كثيرا، هل أنتما بخير؟ أين أمكما؟ أين هي الآن؟ أهي بخير؟ سأخرجكما... لا تخافا... أين ماما؟!

– بابا، لقد أخذها الشيطان.

– من هذا الشيطان؟ هيا نخرج بسرعة...

مسحا دموعهما، وهو يقبلهما في كل مرة، حمل الصغرى إلى صدره، وأمسك بيده الكبرى والدموع لا تتوقف عن الانهمار، متجهين يبحثون عن والدتهما، ليجدوا كريم واقفا وآثار الغضب والحزن على محياه، نظراته بعثت الخوف والارتباك في قلب باسم، فوضع البنت على الأريكة وأجلس الأخرى قربها، وهو في حالة ارتباك شديد، يهز في ذراعي كريم...

– أين زوجتي؟ أين هي؟ أجبْ؟

– اتبعني، وابقِ البنتين هنا.

عندما سمعت بشرى وفرح ذلك تعلقتا في أرجل أبيهما...

– لا... لا يا بابا، لا تتركنا وحدنا، أرجوك... أرجوك.

اقترب كريم من أذن باسم، وهمس له:

– زوجتك في الطابق الأول مقتولة مع أوبالدو وشخص آخر في وضع سيء.

انطلق الكل إلى الطابق الأول، ولم يجدِ منع البنتين من الصعود إلى الغرفة التي حدثت فيها المجزرة، ولكن كريم أسرع قبلهم جميعا ليضع رداء على جثة حياة، ويغطي أوبالدو والرجل الآخر، خوفا على البنتين من المشهد الفضيع، دخل بعد ذلك باسم والبنتين، وقد اكتشف أن زوجته قد قتلت، وقُتِل معها أوبالدو ورجل آخر، تخيل كل شيء أمامه، كم أنها عانت هي وبناته، عانقهما بشدة بنحيب متواصل وبكى كريم للمشهد المفجع أمامه.

لقد تأخر في الوصول، بعض التأخير قاتل، بعض التأخير لا تقبل أعذاره، يقطّع القلب، ولا يعيد ما ضاع، لن تواسيه دموع بائسة، لن تشفي غليله في التئام جرح الغدر الذي تعرض له من أوبالدو.

أنقذ بنتيه لكنه فقد زوجته، مَن ينقذه من الألم المتجذر في أعماقه، أراد أن ينقذهم فقتلهم.

صعب أن تنتظر السعادة فتنتكس انتكاسة كبرى، التعلق بالأمل الكاذب انحدار إلى هاوية اليأس، إذ سيتمكن منك ومن كل ما يحوم بك، يجذبك إلى الانتحار وإلى الضياع، في زمن كل واحد ينكمش على نفسه يدعو إلى الابتعاد عن غيره إلا عن جرمه، ويتقاذف الضعيف بين

أرجل الأيام الشاقة، اغتراب وحرب وجوع ودموع وقتل، تعجز عن اختيار الاتجاه لأنك لا تدري من أين تأتيك الطعنة التالية.

وجود كريم كان جيدا، ليكون سندا لباسم، ليستعجله هامسا له:

- باسم، لننتشل حياة، ونخرج من هذا المكان القذر وإلا تفطّنت العصابة لما جرى، ويقتلوننا جميعا.

حينما قال له يقتلوننا جميعا، نظر إليه باسم ورد عليه:

- وهل ما حدث يبقيني حيّا؟! هل ما أراه الآن حياة؟! ألا ترى أني أرى الموت؟!

كان كريم مقدرا للحالة التي يمر بها باسم وابنتاه المسكينتان، حملا جثة حياة بعد أن لفوها في رداء أبيض ناصع واستقلا جندولا مركونا بالقرب من المكان، وأخذ كريم المسدس من يد أوبالدو، واختفوا في ظلام الليل تلتهمهم المدينة النائمة.

*****

ينهمك عمار في رسم اللوحة التي طلبها الزعيم روكو، وسط مراقبة الرجلين، لأول مرة يرسم تحت التهديد، لا يمكن أن نصنع فنا تحت التهديد، لأن الفن منبعه الحرية، وهو الشيء الغائب هنا، عندما تكون حرا فقط تصبح فنانا مبدعا، لأن الحرية أساس الجمال المنتج الأساسي للفن، والرسمة أكبر متأثر بالتقييد والتحديد والتشديد، لأنها تعتمد على هدوء الأعصاب وراحة البال، وكثير من التركيز، لكن هنا في هذا الوضع لا يمكن الاشتراط، يجب رسم اللوحة في أحسن تقليد ممكن، لا لشيء سوى لإنقاذ نور من الورطة التي يشعر أنه هو المتسبب فيها، فكما أوقعها في الورطة يجب أن يخلصها من الأسر الذي تقبع فيه، حيث أصبحت معرضة لكل الأخطار.

يراقبانه أربعة وعشرين ساعة دون انقطاع، لكنهما في الوقت نفسه يوفران له كل ما يطلبه من أدوات الرسم الراقية الموجودة في الأنحاء، ويأتيانه بالطعام، لكن بالنسبة له توفير كل ذلك لا يمكن أن يوفر له الاطمئنان والراحة في ظل الحصار الذي يعيشه في بيت كالسجن أو سجن كالبيت.

يرنّ هاتف أحدهما، يرفع الهاتف إلى أذنه، وبعد قليل من الإنصات يتكلّم:

– حاضر سيدي... نعم، سأتصل به... حالا.

ثم خرج مسرعا، بعد أن همس إلى رفيقه...

هذه الحركات كانت تربك عمار، كلما حدث أمر كهذا يتوقف عن تحريك الريشة، لا يريد أن يخطئ في حركة فنية غير مناسبة، فهو يريد العمل المتواصل حتى يتخلص من السجن الذي هو فيه، يتخلص من ورطته.

يصل الرجل الذي أرسله روكو إلى أوبالدو، وقف يتفقد الجثتين...

- سيدي أنا في البيت، وأوبالدو مقتول بطعنات سكين مع رجل يبدو أنه شاذ جنسيا، وحياة وابنتيها هربن من الأسْر.

- يا له من غبي... وغد... كيف تركهن يهربن؟ كيف تغلبن عليه؟ نظّف المكان، واذهب بسرعة إلى المستشفى، وهات نور إلى بيتي، الآن بسرعة، أسرع هيا...

- حاضر سيدي.

في المستشفى تتحسّن حالة العجوز والشيخ شيئا فشيئا، أمام دهشة باقي الأطباء، مرجعين الفضل للمجهودات الاستثنائية التي بذلتها نور من أجل انتشالهما من موت محقق، كانت لا تمنعهما من مسك أيدي بعضهما، كانت تعتبر ذلك جزءا من العلاج، فالحب جزء أساسي من الدواء، وترى فيهما والديها اللذين تركاها وحيدة، تريد تعويض النقص والإخفاق، ورسم البسمة والأمل في وجهيهما.

فكأنما يكون الحبّ سببا للحياة، فهو سبب للموت كذلك، فرغم شفاء رجل داخل المستشفى إلا أنه انتحر ورمى نفسه من الطابق الثالث للمستشفى بعد ثورة غاضبة عارمة مليئة بالسخط، بعدما سمع أن كل عائلته قضتْ بالكورونا في ذات المستشفى.

أصبح المكان أشبه بالفوضى العارمة من كثرة المرضى الذين يلتحقون بها دون أن يجدوا رعاية كافية، فأجهزة التنفس الاصطناعي صارت لا تكفي للوافدين، صارت تؤخذ للشباب أو الذين يتأملون في شفائهم بدل من ييأسون من حياتهم، أصبح الموت بالاختيار، ولم تكفِ حتى الأسرّة، فاصطف المرضى على الأرض، يموتون دون أن يستطيع أحد التكفل بهم، بل بدأت عدوى المرض تنتقل إلى بعض الممرضين والأطباء، الكل أصبح معرضا للموت المحقق والرعب هو الشعور المشترك بين الجميع، لذلك كانت نور حريصة جدا على إتقاء العدوى لأنها ذاقت ويلاته ونفذت بجلدها منه لكنها فقدت أعز أهلها فيها.

الآن هي مجزرة لا دين لها، جهاز التلفزة المعلق في الرواق أخباره تبعث على الرعب، تتفقده نور كل صباح، محاولة معرفة أخبار مصر وإيطاليا وكل العالم، وفي كل خبر تتراجع معنوياتها وتنهك قواها من الجهد الذي تبذله، لكن الجهد قد يستعمل لنسيان الحالة النفسية السيئة، لكن لماذا يجب

أن تتعب جهة لأن ترتاح الجهة الأخرى؟ لماذا لايكون الارتياح عاما؟ يتقدم إليها رجلان مكمّمان بألبسة واقية يبدو أنهما طبيبان يطلبان منها أن تتدخل في حالة مرضية خطيرة وأن ترافقهما بسرعة، فاتبعتهما دون كثرة تفكير، وأدخلاها إلى غرفة إنعاش فارغة، وحينما لم تجد أمامها أي مريض، لم تكد تلتف حتى وجدت أحدهما يلف يديه حولها يمنع أي حركة قد تحاول أن تقوم بها، وقبل أن تقوم بأي مقاومة التفّتْ يداه الغليظتان بقوة شديدة، بينما يقوم الآخر بحركة خاطفة بنزع كمامتها ثم يضع على أنفها قطعة قماش تجعلها تنهار دون مقاومة، وضعاها على سرير وغطياها، وأخرجاها إلى مكان مجهول، دون أن يشعر أحد بذلك في فوضى المستشفى التي تعج بأشخاص لا يعرف أحدهم الآخر بسبب الأقنعة الواقية والخوف الذي يجعل كل واحد فيهم يتجنّب الآخر.

يتصل أحدهما بالهاتف:

– سيدي، لقد تمت العملية، سنأتيك بها.

يصمت قليلا، ثم يتكلم:

– حاضر سيدي.

أخذا نور إلى غرفة من غرف فيلا الزعيم روكو، ثم عاد الرجل إلى البيت الذي يوجد به عمار.

عندما دخل الرجل إلى البيت وجد في الصالة صديقه ملقى عليى الأرض وقربه كرسي مكسّر، وتفقد البيت فأدرك أن عمار قد فرّ، وتحسّس نبض صديقه الصريع من رقبته ليرى إن كان حيا أو ميتا، شكّل رقما على هاتفه وهو يكيل له بالشتائم...

- أيّها الرئيس، لقد فرّ عمار، وأخذ المسدس والهاتف.

صمت قليلا منصتا لسباب اللعين روكو وهو يردّد:

- لقد أخذ اللوحة..!!

الفصل (٧)

اقتراب مؤلم...

حدّق روكو إلى نور باحتقار غاضبا، يتطاير الشرر من عيونه، يقذفها بالشتائم والسباب في وجهها، ملوّحا بيديه في كل جهة، وفي وجه الرجل الملتحي الذي يقف قرب الباب، وقد وضع مسدسه تحت حزامه السميك.

ومتصنّعا الهدوء انحنى إلى حيث هي جالسة مقيدة اليدين على كرسي خشبي يتوسط الغرفة، وتكلم إليها بلغة إنجليزية رديئة، لكنّها فهمت مقصوده...

– أتعلمين أن الذي تحبّينه خدعك؟ الرجل الذي تنتظرين أن ينقذك من الحجز هرب، إنه جبان جدا... لم أكن أتوقعه هكذا، الذي قطع كل المسافات يهرب في آخر لحظات اللقاء بك، أظنّكِ صدمتِ بما فعل؟ أليس كذلك؟

لقد اتصلنا بالهاتف الذي سرقه، لم يردْ، لقد بعثنا له برسالة، أمهلناه يومين لكي يظهر ويحضر اللّوحة التي رسمها مقابل تسليمك إياه، إن لم يستجبْ، فاقرئي على روحك السلام وعلى روحه كذلك.

كل الرسّامين الذين تعاملتُ معهم أدّوا ما عليهم... ثم رحلوا بسلام.

انفجر ضاحكا واعتدل في وقفته:

– هههه... لكن أين يذهب؟ هو في مدينتي، لا أحد ينجو من فعلته معي... لا أحد... حتى باسم لن ينجو من فعلته الشنيعة.

كرر جملة (لا أحد...) مرات عديدة وهو يقهقه دون توقف.

نظرتْ إليه نور نظرة حيرة تحمل ألف استفهام، ونظرة تحدي كذلك، تشعر باختناق، لأنها تريد الردّ اللائق بهذا المتغطرس ولا تستطيع، تريد أن تقول له أن عمار لا يمكن أن يهرب، الذي يهرب لا يأتي من آخر الدنيا من أجل أن يستسلم أمام الجبناء أمثالك، هي متأكدة أنه سيظهر في الوقت والمكان المناسبين، صحيح أنه مغترب ومطارد من المجهول، صعب أن يواجه هذه المشاكل دفعة واحدة، وذلك لا لسبب سوى موهبة بدل أن تجلب له المال والسعادة، ها هي تجلب له المتاعب وربما الموت...

لا يمكن أن تنتهي قصتنا بموته، أو موتي، لقد غامر من أجل أن نحيا بالحبّ، لا أن نموت من أجله، سيتصرف بذكاء سينقذني وينتهي الألم.

ثم تلتفتُ إلى نفسها، إلى حالها...

– كيف وصلتُ إلى هذا المكان؟!

ما كانت تظنّ أنها تصل إلى هذا الحد من الضياع في دائرة مغلقة حزينة لا يبدو عليها الانفراج القريب، من اختطاف إلى اختطاف، تتقاذفها أيادي غريبة لا تعرفهم، لا بل تتقاذفها الأقدار دون رحمة ودون عناء، كـأنها لا تملك إرادة، نبدو ضعفاء مسلوبي الإرادة أمام القدر، يبدو كوحش فتاك، وفي الجهة الأخرى يبدو ملاكا يوزع الأفراح دون مقابل، لكن ألا يجدر به أن يكون عادلا؟ يوزع شيئا من الألم وشيئا من الفرح، ليس لشيء سوى لنقاوم نوعا ما، لنقاوم تدفق الحزن، لنتمكن من التحدي والسير في حياتنا، هي متيقّنة أن الحبّ إذا كان سعيدا في

كل تفاصيله، مقرف... غير ممكن... لا يتخيل أبدا...

الحب لا بد أن ينغمس في الحزن، ثم ينتشله الزمن في لحظة أمل، ولأن الأمل كذلك قدر من الأقدار، سيكون كرجل يتلاعب بقلب حبيبته، كواضع بين يديه وردة جميلة يمزق أشلاءها قطعة قطعة، قائلا:

- أقبل، لا أقبل، أقبل، لا أقبل...

وفي القطعة ما قبل الأخيرة يقرّر أن يتابع اللعبة لصالحه أو يغير الترتيب ليكون في صالح ما يريد، وربما رمى الوردة استهزاءً، أشلاء هامدة في الرصيف، يدهس عليها المارة بعد أن فقدت بريقها...

تنفسّت الصعداء حينما علمت أن باسم أنقذ ابنتيه وزوجته، عندما تسمع بخبر كهذا تحس أن جرعة أمل قد ضخّتْ في دمائنا، تخبرنا أن الخير سينتصر يوما ما، وما علينا سوى أن نتحرك في اتجاه هدفنا، مع صبر وقدرة احتمال على مواجهة اللكمات، الإنتصار رحلة لا يقدّر وقتها ولا خسائرها، لكنها جميلة رغم مرارتها، فإما تفوز أو تشعر بأنه كان لك مشروع ما في الحياة وغادرت هذا العالم مطمئنا بالموت!

روكو يعرف أن نور مجرّد معشوقة في هذا الحادث، لا تحمل شيئا مهمّا إذا استجوبها، لكنها تبقى الطُعم الذي يأتي بعشيقها إلى هنا... ويأتي باللوحة كذلك.

تأكدت نور أن حبيبها تورّط لسوء حظه مع عصابة للوحات الفنية، وهم يبتزونه من أجل أن يقلد لهم أشهر اللوحات الفنية.

في قلب المدينة يسير عمّار بخطى متسارعة يلتفت في كل الاتجاهات، متفاديا أعين الشرطة التي تتجول بقوارب بين أزقة المدينة النائمة في ليل يعم فيه الهدوء إلا من طرقات حذائه، الشرطة لا يمكنها أن تنقذه

الآن لأنه سيعرض نور للخطر، وسيدخل في دوامة أسئلة لا نهاية لها وربما لا إجابة لها، وعندها سيكون متّهما بدون أوراق منتهكا للحجر الصحي الذي فرضته الحكومة الإيطالية، حاملا لسلاح بشكل غير شرعي، وسيتفادى أي شخص يمرّ قربه وهم قلة جدا بوضع الكمامة، لأنه يعلم أن رجال روكو لن يهدأ لهم بال حتى يجدوه، وحينما يجدوه سيفقد كل شيء، كان مضطرا أن يقوم بما قام به، لقد فكّر جيدا أن بقاءه في قبضة روكو الخطر الأعظم.

فماذا سيخسر روكو إذا أكمل عمار اللوحة أن يضع رصاصة نحاسية في رأسه ثم يأخذ اللوحة ببرودة، وبعدها يفعل الأمر نفسه مع نور؟!

كان عليه أن يتحرك في وجود رجل واحد يحرسه، اغتنم بقاء الرجل وحده لكي يكون الفرار سهلا، ولم يكن سهلا بالشكل الكافي أمام رجل لا يثق في أحد وظيفته احتجاز الناس، لكن عمار كان قد جهّز مواد شديدة الالتهاب من التي يستعملها في رسمه وذلك في إناء خاص، يتظاهر كونه يستعملها في رسمته، ولم يكن ليعترض أحد لتخرج الرسمة في قمة الدقّة، طلب منه التقدّم إليه كي يكلّمه، حتى تقدّم الرجل إليه بحذر شديد، وهو يضع قبضته فوق مسدسه، ففاجأه برشةٍ من المواد الحارقة على وجهه جعلته يصرخ بشدة، وقد فقد أعصابه وأظلمت الصّالة في بصره الذي لا يرى به شيئا، فانتفض في كل اتجاه يقفز بقوة كالمجنون الذي لدغ، وقبل أن يقوم بتوجيه سلاحه في اتجاهات مختلفة يقوم عمّار بضربة قوية بواسطة الكرسي الذي كان يجلس عليه على قبضة يديه تجعل المسدس يطير منه، ثم يكرر ضربته على قفا رأسه، حتى انكسر كرسيه، فتهاوى الرجل أرضا فاقدا لوعيه ساقطا ككومة قش على الأرض، فالتقط عمار المسدس والهاتف وفر هاربا يتأبط لوحته، لا يدري إلى أين سيفر، غير أنه متأكد أنه قد تحرر

من ابتزاز روكو ولو مؤقتا.

كان الفرار ليلا حيث تقل الحركة بسبب الحجر، وظل يتنقل ويتحرك بين الجسور الصغيرة، يمر فوق جسر التنهّدات يلْهث، وبين الأزقة التي يبدو فيها وحيدا، طريد المجهول، يتعجب لحاله، كيف أصبح مطاردا في مدينة تشبه البندقية، فاقدة لروحها وكأنها مدينة أطلال، فقدت بريقها وضوضاءها، غلقت مسارحها ومراقصها وحاناتها، بينما فتحت مقابرها ومستشفياتها وتعالت الآهات والويلات والدعوات، وسقطت الدموع والأرواح...

يقف على جسر التنهدات متوترا يبحث في ذاكرته عن طريق الخلاص، يتنهد ويتأوه تارة أخرى، يفكر ويفكر حتى يجد نفسه يتحرك نحو المسرح الذي كان يتردد عليه مع ماتيا.

في هذه اللحظات يتذكر أخته نسرين التي أطال عليها بحبل الكذب لكي لا تقلق، وبين كل غياب وغياب يتصل بها هنا وهناك باعثا لها بجملة من الأكاذيب التي تردها باللوم والعتاب، عتاب كالتكذيب، أخبرته أنّها تشعر بأنه في مشاكل لكنه لا يريد أن يخبرها، يكون الكذب الملجأ الأخير كي نلطف بمن نُحب حتى لا يتأذوا من آلام لا يمكنهم أن يتحملوها أو يردوها، وعندما يكتشفون الحقيقة نتحمّل صراخهم وقسوة ردّهم وأيادينا على أكتافهم!

نسرين الوحيدة التي شجعته على ركوب الصعب من أجل من يحب، شعرتْ أن حبّه يستحق المغامرة، وفي ذاكرتها زوجها الذي فقدته في حادث مرور منذ خمس سنوات وهو قادم من عمله في أقصى الصحراء بعد غياب أشهر، تمنّت لو أنها ماتت معه، ومات الاشتياق، أصيبت بالضغط حينها حتى كادت تموت، الأصعب من الموت أن تريد الموت ولا تموت...

رغم أن السفر يخيفها، وأصابتها فوبيا الطريق، كانت نسرين بين نارين في حب عمار، بين حبّ جارف صادق، وبين خوف من طريق لا ترحم.

يتوجه عمار إلى المسرح الكبير حيث اعتاد المجيء إليه، يبدو أأمن الأماكن التي اعتاد الذهاب إليها، لأن اللجوء إلى مكان آخر مجازفة كبرى، واللجوء للشرطة مخاطرة بروح نور، سيختبئ في المسرح الكبير الأشبه بالمدينة الصغيرة، شامخ منظره من الخارج وضخم في بنايته وجميل في أشكاله، يحده من الجانبين ممران مائيان يبدوان كقطع رخام، له واجهتين، جهة واحدة هي معبر مخصّص للجنادل، المنفذ الوحيد للمدينة صنع خصيصا لاستقبال الشخصيات المهمة فقط، والجهة الأخرى تقابلها ساحة كبيرة وهي المدخل الرئيسي للزوار، حيث يوجد بعض عتبات السلم المؤدية إلى بابين كبيرين بدفتين كبيرتين يستعمل أحدهما للدخول والآخر للخروج مع فارق شاسع بينهما.

يتقدم إلى حارس المسرح الواقف وراء المدخل الذي تعلوه إضاءة خفيفة الذي لم يعرفه حتى كشف عن وجهه، ولما عرفه فتح له أحد دفتي الباب، فانهال يسأله عن غيابه الطويل، بينما يحاول عمار أن يظهر السكينة والهدوء حتى لا يثير شكوك الحارس في حقيقة مجيئه إليه...

– أووووو... أهلا بك... أين كنت يا عمّار هذه المدّة؟!

تماسك عمار في وقفته حتى لا يثير الانتباه، راسما ابتسامة فارغة من كل معنى:

– وهل يظهر أي شخص في هذه الأيام، الكل يختفي من الكورونا حتى الفنانون؟

– صدقتْ، حتى المسرح فقد بهجته وبدا مقبرة ترقص فيها

الأشباح... وأنا.

منهيا كلامه بضحكة عريضة، ثم أردف...

– حتى ماتيا التي كانت تأتي ليالي طويلة تؤدي تمارين الرقص لوحدها صارت لا تأتي منذ مدة، توقف كل شيء عن الرقص... بل عن التحرك.

عندما ذكر ماتيا أنها تأتي إلى هنا، تعجب كيف أنها كانت ترقص والكورونا يتربص في كل مكان، أو أنها تتحدّى الخوف رقصا، وتجاهلت الحجر تاركة أمّها وحيدة في البيت، ثم تأتي راقصة غير آبهة بأي شيء. يقطع تفكيره الحارس قائلا:

– أتذكّر أنّي سألتها عنك وهي داخلة كالعادة تقوم بتمرينها الليلي، فإذا بها تغضب غضبا شديدا وتنهمر منها دموع كالشلال، حاولتُ تدارك الأمر، لأني لا أعلم حقا لماذا بكتْ؟ بعدها غابت ثلاث ليالٍ دون أن تتمرّن، وفي الليلة التي تليها لم أتجرأ على سؤالها.

لم يكن يدرك عمار حجم الحبّ الذي تضمره ماتيا اتجاهه، كان كبيرا كالجبال، وهائجا كالبحار، كان كأيّ شيء لم يتوقعه.

والحقيقة المرة التي تتغاضى عنها ماتيا أن الحبّ لا يكون عادلا في كثير من الأحيان...

صمت قليلا وغاص في تفكير عميق، لم يقطعه إلا صوت الحارس:

– سيدي، هل لي بمساعدتك بشيء؟

– نعم، أريد الدخول والاستراحة هنا الليلة فقط.

– طبعا... طبعا، أنت زائر دائم، تفضّل أنت تعرف المكان جيدا.

- أشكرك كثيرا...

- لا عليك، ستنتهي مداومتي السادسة صباحا، يجب أن تخرج قبل أن أنصرف... تعلم أنه ممنوع دخول أي أحد.

ابتسم ممتنّا لخدمة الحارس، وبينما هو داخل والحارس يفتح الباب الزجاجي يرتفع كمّه عن رسغه ليظهر عليه وشم الخنجر الصغير، ينتبه مندهشا مدركا أنه نفس الوشم الذي يوجد في يد كل من روكو وأوبالدو وكل رجاله، مما وتّره في اللحظة التي وضع قدمه الأولى داخل المسرح... لكن لا مجال لتراجعه في هذه اللحظة، ويبدو أن الحارس لن يبلغ عن أمره أو أنه ينتظر دخوله لينقض عليه غير أن ذلك لم يظهر في وجهه.

بعدما تجاوز القاعة الأولى من المسرح المخصصة للدخول، دخل إلى قاعة أكبر شاسعة منها، تتخللها أعمدة رخامية مزخرفة بأجمل الأشكال وأبهى الألوان، وتؤدي إلى المسرح حيث مدرج إلى الأعلى ورواق من كلتا الجهتين، ينتهي إلى حيث قاعات المتفرجين يسارا، وصالات خاصة بأصحاب العروض يمينا، وهناك توجد غرف تبديل وبعض المكاتب، أما في الأعلى إلى جانب القاعات تعلو الصالات بعضها مخصص للأشخاص المهمين وكافيتيريا خاصة بالضيوف، وفي الجانب الآخر صالة كبيرة بها لوحات فنية وتحف قديمة وصور لأهم الشخصيات التي عرضت على المسرح، لكنها لا تفتح غالبا إلا في مناسبات معينة...

توجّه ليخفي اللوحة لكنه اكتشف أنّها مقفلة، ثم أسرع، وتحت إبطيه لوحته محاولا التموقع في ركن من الأركان، يحاول أن يستجمع أنفاسه ويفكر ماذا سيفعل؟ كيف يتخلص من متابعة روكو؟ وكيف

ينقذ نور من بين يديه؟ ورغم اتصالاته به وتهديده له بقتلها، لكنه لا يريد الردّ، واضعا الهاتف في وضع صامت كي لا يربكه أكثر، حتى يقرّر ماذا سيقول؟ بل ماذا سيفعل؟ لأنه لا يدري أيكون قد عرف مكانه أم لا؟ لا شك أنه عرف، ولابد أن يتحرك سريعا لكي لا يكون في قبضته مرة أخرى.

يهرول في كل الأروقة، يريد أن يجد مخرجا غير الذي دخل منه، يعرف أغلب الأمكنة هنا...

كانت ماتيا تأخذه إلى كل الأمكنة قبل بداية عرضها، تأخذه من يديه وكأنها تطلب منه البقاء هنا، وكأنها تقول له:

– ابق هنا وسأرقص لك ليل نهار، فقط ابق...!!

يدخل قاعة المتفرجين الكبيرة حيث تضيئها إضاءات خفيفة هنا وهناك، وكل الكراسي الحمراء مطوية، فارغة من روادها منذ أن استفحلت الكورونا، اكتفى الناس بمشاهدة التلفاز، وانزوى كل الراقصين والممثلين والفنانين في أحد أركان بيوتهم، أو على شرفاتهم يغنون أغنية الحياة في وجه الموت...

يبدو أن ماتيا لا تريد التوقف عن الرقص في زمن الكورونا، طيفها يعانق السماء كأنها طير حر بلا أجنحة، كأنها تتحدى كل شيء، لم تتمكن روحها عن الكف من التحليق، بعض الآلام تطهر الروح، تصفيها من ضجيج الناس، تنقذها من أدران الكلمات، بعض السمو لا يأتي إلا بعد العذاب، وبعد موت أحبابنا، صحيح أننا نشعر بالألم الشديد، لكننا حينها فقط نكتشف أسرارا لم نرها من قبل، ولن يراه غيرنا إلا إذا مرّ بما مررنا به.

يتقدم ببطء من آخر الصفوف نحو الأمام، يغمره مرة الظلام ومرة

أخرى يظهر كشبح خائف، هو غير متأكد من أن الذي يرقص أمامه طيف أو جسد بلحم ودم، قال له الحارس قبل ذلك أن لا أحد هنا، والآن يرى غير ما سمع، أم أن طيف ماتيا مازال عالقا في ذهنه أو في قلبه؟ لا يعرف الإجابة، ولكن اقترابه أبطأ من الظلام الذي يتجاوزه بهدوء، فإن كان حقيقة، فلا يتفاجأ به، وإن كان خيالا فقط، فسيعرف حين تلامس يده السراب، أو حين ينادي يسمع ردا.

- ماتيا... هل أنت هنا؟

يتوقف شبح ماتيا عن الرقص، معتقدة أنه الحارس، وتعجز عن رؤية المنادي...

- من أنت؟

- أنا عمار...

عندما سمعته سقطت ماتيا في مكانها فاقدة وعيها، كجدار منهار، كأنها جثة بلا حراك، كان اسمه كاف أن يفقدها وعيها وكل شيء فيها، اعتقدت أن روحا تزورها، ولكن زيارة مخيفة، زيارة شديدة، كصدمة قوية التأثير، لا قدرة لها على التحمّل، كانت قد نسته أو تناسته، لكن نسيانه كان مخادعا، بل كان هشّا، أو هي كانت تريد ذلك، لكنّها في قرارة نفسها تحبّه بكل الأشكال، تطارد طيفا بعيد المنال.

يسرع نحوها، يمدد رجليها المنكمشان، يضع رأسها فوق حجره، يمسح على خدها بهدوء مرات عديدة دون نتيجة، يلتفت في جميع الاتجاهات يجد قارورة ماء في ركن بعيد، يفتح القارورة، يصبّ قليلا منها على يديه، ثم يرشّ وجه ماتيا بهدوء كي لا تستفيق مرتعبة منه، لكنها تنتفض حينما رش وجهها، تبتعد عنه، عيونها جاحظة، فمها مفتوح من هول رؤيتها لعمار، وهي تلهث من شدّة الخوف، أراد أن

يطمئنها، رافعا إحدى يديه يمدها نحوها يحثها على الاقتراب...

قائلة له:

– من أنت؟ من؟ ابتعد عني.

– ماتيا، أنا عمار، ألم تعرفيني؟ لا تخافي...

لا تصدق ما ترى، أهو خيال أم حقيقة؟! وهي باهتة، تنتصب أمامها ألف علامة استفهام، تتراجع إلى الوراء مبتعدة عنه، وقد وضعت باطن كفها على جبهتها، تنظر إلى الأرض، تحاول أن تكذّب ما ترى، ربما عندما ترفع رأسها لا تجده، يلامس ظهرها جدران المسرح، تنزلق إلى الأرض متكئة على ظهرها، منكمشة الأطراف قابضة يدها اليسرى إلى صدرها ويدها الأخرى تلتصق في جبهتها، وكأنّ الجاذبية هي التي تمتصّ جسدها، ثم ترفع رأسها باتجاهه، لتجده مازال ينتظرها بيدٍ ممدودةٍ إليها، ومازال الذهول في وجهها، ثم تنزل يدها من جبهتها على محياها تحاول مسح قطرات الماء من عليها...

قائلة له:

– أتريد أن تصيبني بالجنون؟ ألست في مصر؟ من الذي أتى بك هنا؟!

اقترب منها بحذر ثم أسدل يده ومدها إليها، تقدّم إليها بضع خطوات حتى لم يبق بينهما إلا خطوة واحدة، حتىّ لا يُثير غضبها، ثم جلس القرفصاء، مشبّكا أصابعه، ضاماً شفتيه إلى بعضهما البعض، وكأنّه لا يتوقّع ردّة فعلها اتجاهه، لكنّه في قرارة نفسه كان يتوقع الصدمة الأولى.

نظر إليها يتأمّلها جيدا...

- أحقاً لا تعرفين ما الذي أتى بي إلى هنا؟

- لا... ولا أريد أن أعرف.

- أظنك تعرفين.

- قلت لك لا أعرف... وكأنك تتهمني بشيء!

- لا أتّهمك... ولكن!!

- ولكن ماذا؟ لا أفهم كثيرا من قصتك الغريبة.

قام واتجه حيث وضع لوحته، أخذها بأطراف أصابعه، رفع عنها الغطاء في أكثر من لفّة، نظرت إليه محتارة دون أن تطرح سؤالا...

- هذه اللوحة طلبها عمك روكو مقابل إطلاق سراح نور...

فتحت فمها أكثر، وانعقد حاجباها الرقيقان مستغربة:

- ماذا تقول، روكو عمي يختطف نور؟ نور هنا؟

أيقن أنها لا تعرف ماذا جرى له... بدأت تشعر بالثقة نحوه، ربما كانت تعرف بعض القصة لكنها لا تعرف كل شيء، تنهّدت... واعترفت قائلة:

- تشاجرت مع عمي روكو من أجل إنقاذك من بين يديه، لأنه لا يرحم أحدا، ولا أحب عمله الوسخ، كان يعاتبني من أجلك، المرة الأولى كانت بسبب مراد، حاول بكل الوسائل أن يبعده عني، لكني كنت أقف له بالمرصاد، في نفس الوقت أنا أخاف من حماقاته، يقول كلاماً قبيحا عنه، كلاما لم أجده في مراد ولا فيك، جنّده في عدة عمليات تهريب مخدرات وظاهرها أعمال حرة، لم يتمكن مراد من الهروب من قبضته، ورّطه حتى أخمص قدميه، وعندما أصيب بالكورونا تبرّأ منه،

ووقفت أنا إلى جانبه رغم خطر العدوى، لكن القدر أخذه مني...

قبلها صارحني، طلب منّي أن أساعدك في الذهاب إلى وجهتك التي لم يخبرني عنها حينها، لأنه كان يخاف أن يلاحقك روكو أو أن تقع في قبضته كما وقع هو، لم يعطني تفاصيلك كلها.

– لكن لماذا لم تخبريني هذا من قبل؟

– كنتُ بين خيارين، إمّا أن تكون إلى جانبي مع الخطر الذي يحوم حولنا، وإمّا أن تكون إلى جانبها وتتركني.

– إذاً أنت أنانية، تفكرين في نفسك، وتتركينني في دوامة الخطر.

– عمي يمكنه أن يؤذي أيّ شيء إلا أنا ومن أحبّ.

قاطعها بصوت مرتفع:

– ألا ترين أنه يؤذيني الآن؟

قامت معترضة على كلامه، وقد بدأت قطرات الدموع تتدحرج على خدها، تسبق أصابعها التي فشلت في صدّها، لم تستطع أن تقاوم انسكاب الدموع، بيد أنها تحاول أن تقاومها، تحاول تغيير ملامحها حتى تبدو قوية أمامها...

– ومن قال أنّي أحبّك؟

– إذن فتشي في قلبك عني، هل أنا موجود؟

– كل الرقصات التي شاركتني فيها مجرد تمضية وقت، نحن الأوربيات متحرّرات، وتفكيرك الذي في ذهنك ليس كتفكيري الذي أفكره، كل الجلسات والكلمات لا تعني لي شيئا، حتى أنت لا تعني لي شيئا، كانت لحظات لهو ومجون كالتي أقضيها مع كل الأصدقاء،

وكنت أحدهم.

اقتربتْ منه حتى كادت تلتصق به، متحدّية نفسها، تلوح بيدها في وجهه، بملامح غاضبة جدا، وأكملتْ:

– لا تحسب أنك سيطرت عليّ، أما اقترابي منك كان بسبب اللوحات التي ترسمها، ومراد هو الذي كان سبب لقائنا، أنت لا تعني لي شيئا...

لم يُرِد أن يقاطعها، لأن بعض كلامها صحيح، لم يرد أن يزيد غضبها، تركها حتى هدأت، عادت إلى الوراء، واستسلمت لدموعها أن تنهمر دفعة واحدة، كأنها كانت محبوسة منذ شهور.

اقترب منها بهدوء مكتفيا بمسافة خطوة بينهما، مسافة الأمان، حتى لا تضطرب أكثر، يعلم أن كمّ الدموع الذي سكبته أراحها قليلا، كأن الدموع خلقتْ حتى تريح القلب، حيث لا دموع يتضاعف الألم، الدموع رسالة من القلب تخبرنا أن الباكي يتألم بشدة.

بصوت خافت جدا، تكلم إليها متجاهلا ما قالت:

– ماتيا، اهدئي، أصدق كل كلامك، لا أنكر أني أمضيتُ أجمل الأيام رفقتك، لم يكن للبندقية طعم لولاك..

ماتيا... أنت تستحقين من هو أفضل منّي، أنا لم أقل لك يوما أني أحبّك، ذلك ليس لأنك لا تستحقين الحب، أي أنثى تستحق الحب، فقط هناك أرواح قد قطعت الوعد أن تلتقي جسدا بعدما التقت روحا، كنتِ بالنسبة لي صديقة رائعة سأذكر صداقتك ما حييت، ولكنكِ أنتِ...

توقفَ عن الكلام.. ثم رمقتُه بابتسامة ساخرة...

– أنا اعتقدته حبّا، غبية أنا... في مرات كثيرة أشاطر عمي روكو

رأيه، أني غبية جدا، لا أعرف مصلحتي، لكنّي أنتكس بعدها أقول له متحدية، الحبّ ليس فيه مصلحة، هو يفكّر كتاجر وأنا أفكّر كغبيّة، كان صاحب تجربة وكنتُ أنا أجري وراء قلبي الغبيّ.

كانت القاعة مسرحا لفضفضة لم تكن بينهما يوما ما، كل الكلام الذي كان يتهرّب منه أطلقه الآن، قصّ عليها كل الحكاية، وأخبرته كل آلامها في غيابه، لامته في شيء واحد حين قالت له:

– أنت شريك في حزني، في حلم كاذب، كان يمكنك أن تصارحني بكل شيء، أن هناك من جئتَ لأجلها، وأنك تتكبّد كل هذه المصاعب من أجل لقياها، وإن لم أبتعد كنتَ تنهرني... تطردني كالكلبة بعيدة عنك، كان يجب ألا تتركني أطارد السراب، كان ذلك لا يكلّفك شيئاً.

– كيف أعرف ذلك؟ كيف أعرف دواخلك؟ لم تصارحيني ولم أصارحك، كانت صداقة لا أكثر، لا تعني الصداقة حباً رغم أنها تحمل بذوره، هناك شيء اسمه الوفاء في الحبّ، كل المسافات والأوجاع من أجل نور، لم أجد شيئا يبعدني عن الوفاء لها.

البذرة نمتْ وأخرجت من قلبها شجرة يصعب اقتلاعها، كانت تفكر ماتيا هكذا حينما كان يحرّك شفتيه العاريتين، ويتبادلان النظرات، رغم ما قالت له قبل قليل، كان ذر الرماد في العيون، فهي لا تتوقع أن يتحول الحبّ إلى كره، لأن الشجرة باسقة، وأثمرت، والآن ستنضج في وجوده.

عمّ الصمت المكان، حتى سمعا ضجيجا يقترب منهما، أسرعت في أخذ سترتها الملقاة على الأرضية، وأخذت قنينة الماء، وطلبت منه أن يسرع لكي يختفيا عن الحارس الذي لم يكن يأتي أبدا إلى هنا طوال الليالي التي كانت تقضيها في تمارين الرقص.

قال لها بصوت خافت بعدما اختفيا وراء أردية خشبة المسرح:

– يجب أن نفرّ ماتيا... ساعديني، أكيد أن روكو عرف مكاني يجب أن نباغته ونجدها الليلة.

– لن يستطيع فعل شيء لها ما دامت اللوحة عندك.

– لكنه هددني في رسالة نصية على الهاتف.

وضعت يدها في يديه، وهي تحثه على التحرك سريعا، هي تعرف المسرح أكثر من بيتها، أحد الأبواب الخلفية الذي تملك أحد مفاتحيها، تتجه نحوه قبل أن يتمكن رجال روكو من الدخول إلى القاعة.

انسلا في الظلام من الباب الخلفي، في حركة سريعة كالريح حتى لا يحدثا أي ضوضاء تسبب القبض عليهما، يتموجان بين الأزقة نحو بيت روكو الذي يبعد شيئا ما عن المسرح... لأنهما لو تأخرا قليلا كان رجاله سيدخلون المكان ويبحثون في كل ركن فيه، وقد أخبرهم الحارس فور دخوله إليه أنه كان يحمل شيئا ما معه. حينما دخل رجال روكو المسرح من أجل جلب اللوحة والقضاء على عمار، كان هو يقترب من منزل روكو مع ماتيا في شارع يبدو أكبر من غيره يقع منزله، يبتعد عن باقي المنازل في مساحة كبيرة، تدل عليى رفاهية صاحبه، تتقدّم ماتيا تستكشف المكان على بعد أمتار من باب المنزل لتتأكد من خلو مداخل الشارع من أي شخص، وكذلك يفعل عمار تحسّبا لوجود أحد رجال روكو في المكان، لكن لا أحد يظهر، ولم يبق إلا خطوات قليلة من لقاء نور، رغم خلو الشارع يكثران من الالتفات في كل اتجاه، تقترب أكثر من الباب الذي يبدو منفرجا شيئا ما، حيث يشع منه الضوء الداخلي، تدفع ماتيا الباب بهدوء وهي تنادي بأقل صوت ممكن تخشى أن هناك شيئا سيئا قد حدث منذ لحظات

قليلة.

– روكو... روكو...

ولما دخلا إلى المنزل انبهرا من عدم وجود أي أحد، لا الخادمة و لا أحد رجال روكو الذين ذهبوا كلهم إلى المسرح من أجل ملاحقة عمار، في مدخل المنزل مساحة واسعة كبيرة تتأثث بآرائك هنا وهناك وفي آخرها سلالم نحو الطابق العلوي، المكان مليء باللوحات الفنية والتماثيل، يؤكد على أن صاحب البيت شغوف بل مجنون بالتحف من كل الأنواع، وفي الأعلى ثريا كبيرة جدا، والمكان مضاء بضوء خافت، تتسلل ماتيا مع عمار إلى مكتبه الموجود في طرف المكان، حيث يجلس عادة يقوم بأعماله كل ليلة دون أن يسمح لأحدهم أن يزعجه، لكنه غير موجود فيه، بحثت في كل مكان، وعمار الذي بقي مندهشا باللوحات الفنية التي تحيط به من كل جانب، فلأول مرة يكون في موقع كهذا، الآن فقط عرف مدى هوسه باللوحات الفنية.

انتقلا من غرفة إلى غرفة دون إيجاد شيء، حتى تذكرت ماتيا أن في البيت غرفة سرية، فأسرعا إليها دون تردّد، وهو آخر مكان يمكن أن يجدا فيه نور، وإلا فإن عمار قد خاطر بإخفاء اللوحة، أسرعا نحو الغرفة، وحينما اقتربا إلى الباب وجداه مغلقا، فبحثا في الرواق حتى أبصر عمار مفاتيحا ملقاة على الأرض، فتح الباب، ليجدا أمامهما، روكو وكريم والخادمة مقيّدون كلهم على الكراسي، وأفواههم مكمّمة، فانبهرا من المشهد، فأخذ عمار يفك قيد كريم وينزع لثامه، وهو يسأله:

– أين نور يا كريم؟ ما الذي جرى؟ أخبرني أرجوك...

بينما يسأله يحاول كريم التماسك واسترجاع أنفاسه وقد بدت آثار

الضرب في وجهه، كدمات قرب أنفه ودماء جافة على شفته السفلى، ولا يكاد يقف حتى يحاول الهجوم على روكو الذي يقف مندهشا من تمكن عمار من الفرار، وقد قامت ماتيا من نزع اللثام عنه، لكن عمار وماتيا منعاه من ذلك، وجذب كريم من كتفيه محاولا إشاحة وجهه عن روكو، حتى دفعه إلى الحائط والتطم ظهره به، وكريم مازال يصرخ محاولا ضربه، وهو يهدّد بقتله، يريد استلال مسدس عمار...

– أعطني المسدس أريحك منه يا عمار، ما بك يا عمار؟ ألا تدري أنه خطف نور؟ سأنتقم منه الآن.

– اهدأ يا كريم أرجوك، أفهمني ما الذي حدث؟ أين نور؟

توقف عن الصراخ والتهديد قليلا، ثم صرخ صرخة قوية وكأنه تذكر شيئا مهما، وخاطب عمار:

– أسرع يا عمار، أنقذ نور من الخاطفين، لقد خطفتْ منذ قليل فقط، أسرع أنقذها...

– مَنْ خطفها يا كريم؟

– لا أعرف، طلبت منهما فك قيدي لكنهما رفضا، أحدهما أراد فكي لكن الآخر رفض بشدة، وقاما بتقييد روكو وهربا.

تدخلت ماتيا في الحديث:

– من يكونا يا عمار هذان اللذان اختطفاها؟

التفت عمار إلى روكو وهو مازال مقيدا، وقد نزعت ماتيا اللثام عن فمه، لكنه لم ينبس بكلمة، توجه إليه بخطوات سريعة...

– أنت السبب أيها الطماع، جشعك سيتسبب بقتل نور، من هؤلاء

الذين اختطفوا نور؟ تكلم أيها الكلب.

وجّه المسدس إلى روكو وقد احمر وجهه احمرارا فأصيب روكو بخوف شديد...

– أتريد أن أقتلك ياروكو... تكلم... أأقتلك؟

تدخلت ماتيا تقف بينهما، لكنه أعاد السؤال عليه مرة أخرى...

– من هؤلاء الذين اختطفوا نور؟ تكلم ولا تجبرني على قتلك.

أجاب روكو وهو ينظر إلى ماتيا بحنق:

– لا أدري...

– أنت كذاب، هؤلاء عصابة مثلك يريدون ابتزازي مثلما فعلت أيها الحقير، يريدون أن يستعملوها كما استعملتها أنت، لماذا أنتم حقراء إلى هذه الدرجة؟ كيف تجرؤون على الاعتداء على النساء أيها الجبناء؟

– هههههه... أُؤكد لك، أن هؤلاء يعرفونها، وقد بدت حبيبتك الخائنة راضية في الذهاب معهم.

حاول عمار الانقضاض عليه لولا تدخل ماتيا التي دفعته عنه، لكنه استجاب وتراجع عن ضربه...

– نور لا تخون أيها الحقير.

ساد بعض الصمت وعمار لا يدري ماذا سيفعل، أصبحت نور في أيد أخرى لا يعرف مكانها، يتألم كذلك لحالتها، كيف هي الآن تتلاعب بها الأيادي كل مرة ولا يستطيع أن ينقذها، لم يكن يتصور أن المرض هو الوحيد الذي يقف في وجهه، أشياء كثيرة تقاوم لقاءهما، لا شيء يريد الالتقاء، يخاف ألا يكون هناك لقاء أبدا، يخاف أنه يطارد خيط

دخان، يطارد سرابا وخيالا لا وجود له، يغرق في التفكير العميق... لكن المكان ليس مكان تفكير، وقد بدأ هاتف روكو يرنّ في جيبه.

حتى تكلم روكو...

– أتعلم يا عمار إن لم أرد على رجالي، فسيعودون إلي ويجدونك هنا ولن تكون الأمور جيدة عندئذٍ.

التفت إليه عمار وهو غاضب...

– سأقتلك قبل أن يأتوا إلى هنا... اصمت.

– حسناً.

لتتكلم ماتيا:

– عمي، تكلم أرجوك، ساعدنا للعثور عليها.

– ابتعدي عني أيتها الخائنة... كان الأجدر أن أقتلك منذ زمن.

انفجر كريم غاضبا في وجهه، وطلب من عمار أن يتركه ليؤدبه بطريقته الخاصة، لكنه رفض ذلك، وأخبره أن لا طائل من ذلك، ثم اقترب من روكو موجها سلاحه إلى جبهته وقد غمز ماتيا لكي لا تخاف وتتدخل، وتعرف أنه مجرد تهديد ربما يأتي بنتيجة لآخر مرة.

– لا أظن أن فيك فائدة... يا روكو.

شعر روكو بالخطر، وصار يصيح:

– انتظر يا عمار، هناك حل...

– ما هو؟ تكلم... أسرع.

– دعني أجد لك مخرجا... دعني أستجمع أفكاري.

رفع مسدسه عنه...

– حسنا... سأنتظر.

صرخ روكو:

– وجدت لك حلّا...

تكلموا جميعا دفعة واحدة:

– ما هو؟

– أعقد معكم صفقة.

غضب كريم جدا، يريد التوجه إليه مرة أخرى، فمنعه عمار، مخاطبا روكو:

– لست في موقع صفقة أيها الحقير.

قاطعه عمار:

– أتركه يتكلم.

– حسنا، دعني أتصل برجالي حتى يبحثوا عن نور قبل أن تخرج من المدينة، وإذا خرجت عندها قد لا تلحق بها أبدا، وفي المقابل دلني على اللوحة التي طلبتها منك سابقا، وعندها لن يكون بيننا أي مشاكل... ما رأيك؟!

صمتوا كلهم، وهم ينظرون إلى بعضهم البعض، بين أن يقبلوا بالاتفاق الذي طرحه روكو أو البقاء في دوامة التفكير الفارغ من كل نتيجة!

انتفض عمار في وجه روكو:

– وكيف أصدّقك، وآمنك على نور فتؤذيها؟

– لو أردت أذيتها لكنت فعلتُ ذلك من أول يوم، أنا غايتي هي اللوحة فقط، لا شيء غير اللوحة.

قالت ماتيا:

– يبدو أنه حل مناسب يا عمار، لا يوجد حل سواه، نحن لن نجدها وحدنا، وروكو أمامنا، ولن ندله على اللوحة حتى نجد نور.

قاطعها عمار:

– أتثقين فيه؟

– لا...

– إذاً؟

– ليس لدينا حل آخر.

ساد الصمت، وروكو ينتظر الردّ الحاسم من عمّار المتردّد في قبول هذا الاتفاق الذي تشوبه الخطورة، لكن قلبه معلّق بنور، لا يريد أن يتركها في مهبّ الريح، يكفيها ما ذاقت بسببه.

يشير عمار إليهما لكي يقتربا منه، يهمس لهما:

– ما رأيكما؟

لم يوافق كريم على المقترح...

– لا يمكنك الوثوق فيه يا عمار، إذا حررته سيقتلنا جميعا، سيبحث عن نور ويقتلها.

قاطعتهما ماتيا، وهي تتشجع في الحديث ونظراتها تتجه إلى عمار،

وكأنها مقبلة على الانتحار، مقبلة عل التضحية بنفسها.

– أتركني معه، سأبقى هنا، سأخبره أني أعرف مكان اللوحة، وإذا أخبرتموني عن وجود نور معكما، سأخبره بمكان اللوحة.

اعترض عمار...

– لكن ماتيا، روكو قد يؤذيك.

– إنه عمي، لن يفعل ذلك...

– لا... لا، إنها فكرة سيئة.

تدخل كريم...

– بل فكرة لا بدّ منها، ليس لنا حلٌ آخر.

توقف الكلام، نظروا إلى بعضهم البعض، يبدو أنهم ينتظرون قرار عمار، وهو يعرف أن الوقت ليس في صالحه، ونور مازالت تعبث بها الأقدار، وماتيا تريد أن تضحي بوقوفها أمام روكو، تضمن أنّه لا يؤذيها وتخبره في آخر المطاف عن مكان اللوحة التي أخفاها عمار...

– حسنا، توقّف رأسي من التفكير... اتفقنا.

يكاد عمار يسمع كلماتها التي لم تقلها، والنظرات تتباعد تاركين ماتيا مع روكو لمصير مجهول رغم قبول الكل بالاتفاق، حتى روكو رضي بالأمر، وهو يرى أنه نجى من غضب كريم، خرجا من منزل روكو واختفيا في ليل صامت، وفي قلب ماتيا ضجيج كبير.

اختفى باسم وابنتيه في بيت من غرفة واحدة ومطبخ استأجره طه، منذ هروبهم بعد مقتل زوجته تحرك ابنته الصغرى جرحا مازال رطبا...

– بابا... أين ماما؟

كأنها فتحت بابا من الجحيم، تتهرّب كل الإجابات، سيكون الصدق جوابا قاسيا كالموت، سيكون التهرّب مخرجا فاشلا.

يتساءل في نفسه:

– نحن الكبار ضعفاء أمام هذا الكم الهائل من الألم، فما بالك بهاتين الصغيرتين وكل ما شاهدتاه في حياتهما، يصعب حينها أن نقنعهما بالفرق بين الحياة والموت، بين الحب والكره، بين السعادة واللاسعادة، لا يمكن إقناعهما بأن الشيطان سبب هذه المأساة، سيتخيلان أن الشيطان يبكي حزنا حول ما تمتصه الأرض من الدماء، وما تثقل به قلوب الناس من هم وغم وآلام... الذي يحدث أكبر من قلبهما، أكبر من إدراكهما...

قطعت مرة أخرى تفكيره اللانهائي، بنفس السؤال:

– بابا بابا... أين ماما؟

استجمع تفكيره، لأنه سؤال كبير، سيطارده كثيرا...

– أمك يا حبيبتي في مكان أجمل من هذا.

حتى الإجابات تحتاج إلى تفصيل، تحتاج إلى شروحات وكلمات، إلى مزيد من التبسيط.

– هيا نذهب إليها يا بابا.

كلما زاد الكلام اقتربنا إلى العمق، حيث يقبع جرح كبير، تقف عنده الحروف عاجزة، لكنها تدل على حجمه وشيء من طعمه، تتسرب من أجفانه على شكل دموع ساخنة، سخونتها تدلّ على أنها غُرِفتْ من الجوف.

– قريبا يا بنيتي، سنذهب إليها.

– متى يا أبي؟!

– عندما يريد الله ذلك.

تسكت البنت ليس اقتناعا، ليس هناك إجابة لكثير من الأسئلة، وكثيرة هي أسئلة الكون المعلّقة، والأكثر من ذلك الأسئلة التي لم نسألها، التي لم نصل إليها بعد...!! تسكت وهي تتلملم في حضن أبيها، وتغمض أجفانها مستسلمة للنوم ومستسلمة لعدم الإجابة، تحاول أن تنام حتى تعثر على أمّها في الأحلام، لتخبرها أنها اشتاقت إلى حضنها وحنانها، لكنها ما تفتئ تستيقظ مرعوبة من أحلام مزعجة تحجب وجه أمها بدخان أسود وهي تمد يدها إليها حتى تغيب وهي تنادي ماما ماما... وهكذا يمكن لحياة أن تموت...!

ثم يحاول الأب المسح على رأسها وأكتافها وتقبيلها، متذكرا روكو السبب في مأساته، خيانته للعهد الذي قطعه ثم أنّه سلّم زوجته لأوبالدو الخبيث.

أحيانا لا يكفي الحزن وحده، لا بد أن يشحن بثورة غضب، بانتقام، ليبدد الألم الكامن في القلب الذي هدر روحا، عبث بجسد، خان عهدا، أو نسف عمرا، ثم يتحول بنظره إلى ابنتيه، هما من تمنعانه من الانتقام، لأنه سيفقدهما، سيتركهما لمصير مجهول، سيكون متوحشا جدا في غيابه، لا يستطيع أن يتخيّله.

يسمع طرقات باب البيت، يلتفت إلى طه الغارق في نوم عميق، يهمس له باسم...

– طه... طه.

يرفع طه الغطاء عن وجهه، وشعره الكثيف يتجه إلى كل اتجاه، بعين مفتوحة وأخرى مغلقة، يسأل:

- ماذا؟ ماذا يوجد؟

- الباب يدق.

- أمتأكد؟

- أجل، أتنتظر أحدا؟

- لا... لا.

رفع كل الغطاء، واتجه إلى الباب ونظر من ثقبه، فرأى كريم ومعه عمار، ابتهج لرؤيتهما، تعانقوا جميعا ونسوا أمر العدوى، ما يحدث لهم جميعا يتجاوز الكورونا بمراحل، هناك هموم أكبر من كورونا، ولم يعد باسم يعبأ بها.

كان لقاءً حميميا، تختلط فيه الدموع والابتسامات الخافتة... لا يهزم الكورونا إلا العناق!

يتزاحم في جعبة عمار ألف سؤال، يتردد أن يسألها ليس في أن يفصح عنها ولكن في التوقيت الذي يستحسن الإفصاح فيه عما حدث له، لم تكن الدقائق التي التقى فيها بماتيا كافية أن تقول له كلاما كثيرا في عينيها.

لماذا لم يخبره باسم بخطر روكو؟ لماذا لم ينبهه كريم بخبثه؟ لماذا لم تخبره ماتيا أن الإصابة بالكورونا كانت وهما وكذبة عاشها بتفاصيلها؟ ستخبره أنها لا تعلم وهي تعلم لأنها تريد منه البقاء بأي شكل، تماما كما يرغب روكو، إلا أن ماتيا تستبقيه حبّاً، ويستبقيه روكو مصلحة، لكنها لم تعلم أن طرده من منزل مراد بإيعاز من روكو لكي يضغط عليه

حتى يقبل بعرضه لرسم اللوحة التي يطلبها، ويتفق معه في مساعدته للهجرة إلى مصر، في أحد القوارب التي تهرب البشر من ألم إلى ألم آخر، يعلمون في قرارة أنفسهم أن هناك ألم أقل سوء من آخر.

أخبرهم كريم أن روكو لديه رجال في كل مكان، وأن الشرطة تفرض الحجر الصحي للمدينة كما إيطاليا كلها، وتتجول في كل مكان ولا يمكن أن تخرج نور وخاطفيها من المدينة، لا قارب يتحرك، لكن عمار متوتر جدا، يعجز عن الجلوس كما جلس الباقي، يقف مشدود الأعصاب، يتمتم مرة ويتكلم مع كريم مرة أخرى، وكلهم ينظرون إليه، طالبين منه التعقل، يجب أن يكون التحرك مدروسا، لا يمكن المغامرة بأنفسنا، حتى روكو يكون قد استجمع قوته ويفتش عنها وعن نور وخاطفيها، ثم ينتفض في مكانه يبكي ويصرخ بدون صوت في قرارة نفسه يشعر بالضعف والتشتت، حينما يتذكر أن نور مازالت كرة في يد القدر، كأنها لعبة في يد الأقدار، وهو يطاردها، ثم يصاب بحالة جنون، يتحدث في نفسه:

– أيمكن أن تكون نور تتلاعب بي؟ أيمكن أن تكون متحالفة مع هذا القدر؟ أيمكن أن تخونني مع هذا القدر المشؤوم؟ أم أن القدر يهزمها ويهزمني، ويهزمنا جميعا، يتلاعب بنا، يتلاعب بكريم، ويتلاعب بباسم، ويتلاعب بالبندقية فجعلها تطرد زوارها، وتقتل أبناءها، وتشمع البيوت وتحرق ثياب الموتى، ويتلاعب الفيروس بإيطاليا، ثم يحشر أنف أمريكا في التراب، بل العالم نفسه.

أيمكن أن تكون الكورونا من صنيع القدر؟ يموت الضعيف والقوي بالعدل... تتضح قوتنا بقدر مقاومتنا، مقاومتنا للقدر، وها أنا أقاوم، ونور تبدو كالطعم لحجم مقاومتي، وأبدو في هذه اللحظة

محل اختبار منه.

انتبه لكلمات كريم وباسم لكي يهدأ، وفي داخلهما توتر كبير، هو يشعر بالألم الذي يعانيه باسم كلما لَمَحَ البنتين النائمتين قربه، لذلك لا يريد أن يجلس هكذا في يوم من الأيام، يبكي ما تبقّى له من نور.

طه وكريم وباسم كلهم بائسون في ركن الغرفة المظلمة، في جوفهم كذلك ظلمة أشدّ منها، في الحقيقة كل البندقية تعيش ظلمة قاتمة بائسة تماما كفوهة بندقية، حتى ماتيا فقدت بريقها، الموسيقى فقدت امتدادها، الرقصة شاحبة كالوجوه التي ترقصها، كل الناس تذكروا أن هناك إله يجب اللجوء إليه، الإله الذي لا يكون فقط في الكنائس ولا المساجد، إله موجود في كل مكان، ربما أحدث ذلك كله لكي نعود إليه، ولو على نعوش مرشوشة بالجير والمنظفات، بدون أحباب، كما غادر مراد في ظروف غامضة أحزن حتى من الموت الحزين، حتى الموت أصبح أسوأ مما كان.

الفصل (٨)

إكتمال اللوحة

– أيتها الخائنة... تبا لك... تبا... تبا، تضحين بنفسك من أجله، أي جنون هذا؟!

ترتعد أوصال روكو، يرتجفّ، يشْتم، يحمرّ وجهه وتبرز أوداجه، ينتزع مسدس أحد رجاله الذين يقفون محيطين بماتيا، يوجّهه على جبهتها، مع كيل من الشتائم.

– ما الذي يمنعني من قتلك؟ تكلّمي... انطقي.

قاطعته صارخة:

– أُقتلني... أقتلني... أنا ميّتة أصلاً.

كانت تقول كلامها بكل ما أوتيت من قوة، تعني كلّ حرف تتلفّظ به، كانت تتمنى أن يطلق الرصاصة التي تريحها من التشتّت ومن حياة لا تشبه الحياة، تمسك المسدس إلى رأسها، تضع يديها فوق يديه، وتكرر كلامها بكل ثقة.

– أقتلني... أرجوك خلّصني ممّا أنا فيه، سأكون ممتنّة لك، رصاصة واحدة تكفي لكي ترسلني إلى العالم الآخر.

– أنتِ تستحقين أكثر من رصاصة، أيتها الخائنة.

ثم نزع المسدس من قبضتها، وكأنّه يقتلعه اقتلاعا، هي تريد أن تموت وهو يريدها أن تبقى حتى يجد اللّوحة التي أخفاها عمّار، يلتفتُ

إلى رجاله...

- أيها الفاشلون، كلكم تستحقون القتل، كيف لهذا المجرم أن يخدعكم؟ ويأتي إليّ هنا ويهدّدني ثم يفرّ بسهولة، ولم تعثروا عليهم في مدينة تعرفون كل مداخلها ومخارجها... أغبياء... اللعنة عليكم.

قاطعه أحد رجاله...

- لا يمكن أن يكون قد خرج من المدينة.

وما أن أنهى جملته حتى لطمه في وجهه، جعله يتراجع خطوات إلى الوراء مترنّحاً يمينا وشمالا من شدة الضربة، وأثر الاحمرار في محياه يحاول مسحها بظهر كفه، يُتبعها بوابل من الشتائم النابية.

ابتعد وجلس على الأريكة، ومازال يمسك بالمسدس واضعا إياه على ركبتيه، يحدّق بحدة في الرجل الذي لطمه.

بصوتٍ حاد أقلّ ارتفاعاً من السابق...

- أتستطيع أن تؤكّد لي أنّه لم يخرج من المدينة؟

لم ينبس الرجل بكلمة، مخافة أن تخترق رأسه رصاصة مباغتة.

أكمل روكو صارخا:

- اللعين هرب من المسرح، ونور خطفت من بين يدي، وباسم يتجوّل في المدينة وكريم فرّ كذلك، وأصبحت أنا في بيتي أسيرا ورجالي كالأغبياء تائهون فيها، لا يستطيعون فعل شيء.

التفت مرة أخرى إلى ماتيا:

- أصبح عمار وجماعته يستعملون أحد أفراد عائلتي الأغبياء مثلك... تبا.

يجعل الحبّ الناس أغبياء، لأنهم لا يستعملون عقولهم، يصرون على الأوهام، بينما يفوز بالأحلام أشخاص اختارهم القدر دون استئذان ولا استشارة ولا كفاح، دائما هناك قصص مزدوجة، كالعملة النقدية ذات وجهين، لكنه قد يسّرك وجه ويقتلك الآخر.

واصل كلامه محدقا فيها:

– تخلصتُ من مراد، فجاءني هذا الغبي عمّار.

قاطعته ماتيا بصوت مرتفع وملامح مندهشة...

– ماذا تعني؟ أقتلته؟ ألم يمت بالكورونا؟ لكن كيف؟ لقد مات أمامي...

لوّح بالمسدس...

– ههه... أتعتقدين أنهم يموتون بالكورونا؟ جرعة زائدة من أية مادة قاتلة تفي بالغرض...

حاولتْ أن تقوم من الأريكة التي تجلس عليها فمنعها رجاله، تتخبّط في مكانها وتحاول الإفلات منهم، لكنّها لم تتمكن إلا من التكلّم باكية.

– لماذا قتلته أيّها المجرم؟ كان ينفّذ أوامرك كلّها، كنت لا أراه بسببك، أنت الذي كنت ترسله في مهمات بعيدة، ولا يرفض لك أمرا، ثم تقتله بدم بارد، يا لك من مجرم.

قاطعها:

– لا تظنّي أنّه ينفّذ الأوامر بدون مقابل، كّل شيء كان يجده عندي، كنتُ أدفع له المال وهو لا يستحق شيئا، أخبرته أن علاقتك به لا تعجبني، أردت أن أبعده عنك لكّنه كان طمّاعا، يريد أخذ المال وأخذ

ابنة أخي أيضا، لا يمكن أن يدخل أجنبي في عائلتنا، أرسلتُه في بؤر الكورونا لكنّ العدوى لم تقتله، كان يتحدّاني ويتحدى الكورونا، جابهها، لكن من يتحداني أنا يموت قطعا...

كان مجرّد جرذٍ يعمل في ورشة تصليح السفن، لو تركته هناك لكان مازال تحت أقدامي، لكن رأيك السيء جعله يقترب منك، واندهاشك به وذكائه، هو ذئب محتال سرق قلبك الأحمق.

- وما دخلك أنت...؟

- أنا عمّك أيّتها الغبيّة، لن أتركك تفعلين ما لا يليق بعائلتنا أبدا.

- لو كان أبي حيّا ما سمح لك بهذا.

- أبوك ذلك المغفل... لم يكن يسمع الكلام.

- قلتُ لك دعني أعيش كما أريد.

- لا يكون الأمر ما دمتُ حيّاً.

- تبّاً لك...

صمت روكو وقد شعر بالتعب والإرهاق، بدأ يتحسّس رأسه، طلب من رجاله وضع ماتيا في غرفة دون تقييّدها مع إقفال الباب جيّداً، حتّى الصباح في ساعة فكّ الحظر الصحي على السابعة تماما...

*****

الحبّ لا دين له، وكذلك البغض، يعجز القانون في كثير من الحالات ولا يعجز الرب دائما، هكذا يوجّه القسّ لويس كلماته أمام منصته إلى نور، ثم يرتّل آيات الصباح.

– (باسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين، اللهم يا من أوصلتنا بعنايتك الأبوية إلى هذا الصباح نسألك أن تعضدنا بنعمتك الإلهية في هذا النهار الجديد حتى نتجنب فيه كل خطيئة وتجعل كل أفكارنا وأقوالنا وأفعالنا عمل مرضاتك وحفظ وصاياك ووصايا كنيستك وواجباتك..)

ثم أشار بإشارة التعميد بيده اليمنى...

نطق الجميع:

– آمين..

تتراجع نور خطوات إلى الوراء خلف القس، بينما يصلي في آخر الصف مرزوق يستقبل القبلة بعدما استعمل الهاتف الجوال، وقد سمح له القس أن يصلي صلاة المسلمين، في زمن الكورونا حدث أن سمحت بعض الكنائس في أوروبا الصلاة للمسلمين داخلها، لقد أتى مع همام ليكفّر عن خطئه في التبليغ عن عمار للمعلم فرج دون أن يقصد ذلك أو يعرف المأساة التي خلفها كلامه.

يلتفت القس إلى نور بعد أن انصرف الشماسان المرافقان له بهدوء ووقار، وما إن جلس قربها على بعد أمتار لتعاود الوقوف وتضع ورقة أمامه كانت قد كتبتها في أول ليلة جاءت فيها إلى هنا، وقد مضت ليلتان منذ فرارها من أيدي روكو وعصابته بمساعدة همام ومرزوق، أخبرته كتابة ببعض ما ألم بها وكيف أنها خُطِفتْ إلى هنا وهي تستعد للرحيل والعودة إلى بلادها، لكنها تريد الاعتراف ببعض ما يؤرق

مضجعها، تريد أن تطلب الغفران، لكن صوتها ذهب في صدمتها الأولى مع وفاة والديها، تشعر أنها كانت السبب في موتهما، وأن خرسها عقاب إلهي جراء ما صنعت، بل أن كل ما يحدث لها الآن جراء ذلك الذنب العظيم الذي اقترفته.

ثم ختمت رسالتها بقولها...

- باركني يا أبتاه، لأني أشعر أني مخطئة، ومرّ عليّ وقت طويل لم أدخل مقصورة الاعتراف.

كان القس يقرأ رسالتها ورأى أنه لا داعي لمقصورة الاعتراف مادامت نور لا يمكنها الحديث، ثم وقف وهو يلبس الجلباب الأبيض العريض الذي يمتد إلى قدميه، مرسوم في وسطه صليب، واسع الأكمام، مطرز بزخارف ذهبية اللون على حواشي الثياب وعلى كلا الذراعين صليبان، يبدو طاعنا في السن، وقد كسى الشيب رأسه، وظهرت في تقاسيم وجهه ملامح التقدم في السن، يقف أمامها بكل وقار يتكلم معه باللغة الإنجليزية كما كتبت هي رسالتها.

- تأكدي أيتها المؤمنة أن اعترافك بالإثم هو أول خطوات الغفران، أكثري من الصلوات وأعمال الخير، فقدان صوتك هو جزاء فقدانك والديك من عدم توخيك الحذر فكان الشر الذي أصاب والديك قد أصاب منك شيئا من النعم التي تتنعمين بها، إن طهارتك الآن أفضل لك من نيران المطهرة الحارقة، لقد قصّ عليّ همام قصة اختطافك من قبل عصابة روكو اللعين وكيف خلصك منهم، لكنه لم يذكر لي القصة كاملة، إلا أن أخبرني مرزوق قصة حبيبك عمار، لقد أذهلني سفره في هذا الزمن الصعب من أقصى الدنيا من أجل أن يصل إليك.

والآن أنتِ تريدين الفرار في الوقت الذي يبحث هو عنك، يخاطر

بحياته من أجلك وأنتِ تفرين منه وبينكما خطوات قليلة، أليست هذه خطيئة يا نور؟

أخذت ورقة وكتبت:

– لكن أليس ما سأقوم به يتعارض مع مشيئة الربّ؟!

انتبهت وكأنها تنتبه إلى ذلك لأول مرة، أن بينها وبين حبيبها خطوات، أفكار تتردد في قلبها أكثر من مرة، كيف أنه اختصر آلاف الأميال إلى بضع خطوات، قد تكون مغادرة المدينة مغادرة أبدية لعمار، في الواقع لم يحدث اقتراب كهذا من قبل، لو كان الربّ لا يريد أن نلتقي لما حدث هذا الذي يحدث، رغم الوباء الذي حلّ بالعالم مازال الحلم ينتظرنا، لا يمكن أن أبقى هاربة من قدري بينما هو يطارد القدر الذي سيجعلنا مع بعض إلى الأبد.

لكن القسّ لويس لا يعرف أن همام يريد أن يتزوّجها دون رغبتها، يخطط لأخذها إلى بلادها ثم يطلبها للزواج لذلك فهو بحرص شديد يخرج كل صباح مرتدي الكمامة ومتنكّر ومتحاشي لكل دوريات الشرطة حتى لا يكتشف أمره، إذ الكمامة أدّت الدور الكبير في التنكّر، إضافة إلى نظّارات شمسية سوداء تزيد الأشخاص غرابة، منظر لم يكن متوقعا، حتى الناس التي تعرف بعضها البعض أصبحت لا تعرف بعضها، فهمّام يمشي في الأزقة دون مضايقات لأن التجوّل مسموح نهارا ممنوع ليلا، وفي غيابه يحدث الحوار الذي كانت تحتاجه نور، شيء مع نفسها وشيء مع القس، كانت تتكلم كتابة وكان يكلمها بين الصلوات، جعلها تشعر أنها يجب أن لا تكون مطاردة إلى الأبد، لماذا لا تكون هي المطاردة لقدرها، كلمات القس تشْحنها شيئا فشيئا، لم يكن يحرضها على شيء سوى أنها أصبحت كالقشة في مهب الريح.

حينما يأتي ليلا هماما، بينما يؤدي صلواته مع القس، يجلس مرزوق وحيدا في آخر صف من الكنيسة، وقد أحسوا بالورطة لعدم تمكنهما من تدبير قارب يبحر بهما إلى مصر، فكل الرحلات توقفت، وعيون روكو تسأل عنهم في كل مكان، لا يكون الخروج بسهولة الدخول، فالوباء أصاب الجميع بالذعر، وأصبحت الإصابة به قريبة جدا، وصوت السعال يخيف المارة، وصوت العطاس يجذب انتباه الناس في الطرقات، حتى حركات الأشخاص قلّتْ وجعلتهما في مرمى نظرات بعضهم البعض.

تمكّن القس لويس من حمايتهم، حينما أتى إليه أحد رجال روكو يسأله إذا ما شاهد غرباء في المدينة أو ربما التجأوا إليه، أخبرهم أن الكنيسة لا تفتح أبوابها لأحد منذ أن توقفت الصلاة، وكفت أجراسها عن الرنين، وكان كلامه غير قابل للشك، كيف للقديس أن يكذب، وهو في قرارة نفسه يحمي الأبرياء من هذه العصابة، لكنه أخبرهم أنه لا يمكن أن يحميهم إلى الأبد، فأعين ما يمكن أن تكتشف دخولهما أو خروجهما من الكنيسة حينها سيكون القس لويس في خطر ليس من العصابة فقط، بل حتى من الأساقفة ومن رجال الشرطة.

في الليلة الثالثة تجاوزت الساعة السابعة مساء ولم يعد مرزوق وهمام... تقترب الساعة من الثامنة والقس يستشعر خطرا ما قادما، شيء ما منعهما إما أن الوقت لم يسعفهما في العودة مبكرا، أو أنهما أُصيبا بالكورونا واكتشف أمرهما في أحد مداخل المدينة التي تكشف عن حرارة كل المارين، أو أن الشرطة اكتشفت أنهما لا يحملان تأشيرة صالحة، أو الأمر الأخطر الذي يخشاه القس وتخشاه نور أن يكون روكو قد اكتشف أمرهما، وهو الذي يربكهما ولن يتركهما ينامان الليل.

وفي منتصف الليل بينما يتلو القس لويس صلواته، بدأ طرق قوي لباب الكنيسة، حتى ارتعد القس خوفا، متسائلا من سيأتيه في مثل هذا الوقت، إلا إذا كان همام ومرزوق، وقد تمكنا من تجاوز الشرطة، توجّه إلى الباب الكبير وهو يطلب من الطارق أن يكفّ عن ضرب باب هذا المكان المقدّس، ولم يتوقف الطارق عن ضرباته المتتالية، فتح الباب وإذا به يجد أمامه ثلاثة وجوه لا يعرفها، يرتدون كمامات سوداء، دفعه أحدهم بقوة من كتفه، فسقط القس أرضا، أمسكه أوسطهم من جلبابه بقبضة تحت رقبته، ورائحة الخمر تفوح من فمه.

– أيها الخائن للربّ، أين هي نور؟ عجّل بالإجابة وإلا سنقضي عليك حالا.

– أيها المجانين أتعتدون على قسٍ في كنيسته؟ ستصيبكم اللعنة ويعاقبكم الربّ عقابا شديدا.

وكلما تكلم القسّ، زاد الرجل في إحكام قبضته، حتى خرجت نور مسرعة إليهم محاولة إنقاذ القس وهو يحاول أن يمنعها عن التقدم بكلتا يديه، وهو يقول لها:

– تشبثي بإيمانك يا نور، لن يستطيعوا إيذاءك.

قام الرجل الذي يمسك بالقس بدفعه بقوة جانبا، وتقدم الرجلان اللذان معه وأمسكا نور، تاركين القس أرضا، يكرر لعناته ويهدّد بغضب الربّ عليهم جراء اعتدائهم عليه، بينما يخرجون دون اكتراث لصرخاته، موصدين الباب وراءهم.

دخلت نور وأحد الرجال يمسك بها إلى خشبة المسرح، ووراءها باقي الرجال، بينما روكو يجلس في جهة وماتيا في كرسي من جهة أخرى، يقف خلفها رجلان ضخمان يرتديان بدلات سوداء، وكلما

اقتربت منها فتشت في ذاكرتها، لأنها تبدو بالنسبة لها ليست غريبة، لقد تذكرتها، إنها الفتاة التي رسمها عمار في اللوحة، لتنهال عليها الأسئلة...

- من هي هذه الفتاة؟ ما علاقتها به؟ لماذا رسمها؟

قام روكو من الكرسي واقترب من نور، مخاطبا إياها:

- خرساء، لا فائدة منك.

تصدر منها أصوات احتجاج بلا حروف، تحاول الردّ، لكنّها لا تستطيع، تحاول أن تصرخ لكنها لا تقدر، سلمتْ نفسها لا لأنها لم تستطع الهرب، ولكن كلام القس اخترقها، لأنّها شعرت بأنها صارت كالقشة في مهب الريح، وأن هذا الزمن قد ولّى، ترتعد شفتاها، تصدر منها أصوات من أعماق حنجرتها، لكنها بدون حروف، غابت حروفها لتردّ بنظرات حادة تمتلئ باحتقار يكاد يختصر كل الكلمات التي لم تقلها، بعض النظرات أبلغ من الحروف.

تجلس على الكرسي الذي كان يجلس عليه روكو، و في الجهة المقابلة تجلس ماتيا التي تنظر إليها نظرات دقيقة، إلى شعرها الأسود الجميل، إلى عينيها السوداوتين، إلى خدها المنتفخ الأبيض، إلى شفتيها المنتفختين، إلى جسمها المتناسق المفعم بالأنوثة، إلى رجليها، تدقّق فيها صعودا ونزولا، أكثر من مرة، محاولة اكتشاف شيء مميز فيها يجعل عمار يقطع كل تلك المسافة لأجلها، يغامر في زمن الوباء من أجل فتاة واحدة، اللحظة التي كانت تريد أن تكلمها أتت، لكن ليس في موقف كهذا، لم تجد شيئا مميزا، لكنها لم تنظر إلى الروح، ذلك الشيء الذي لا يرى بالعين بل بالقلب.

تتطلع إليها نور بدورها، شعرت أن هذه الفتاة تعرفها أكثر مما يجب،

لا تدري ما علاقتها بالأمر، كثيرة هي الأسئلة التي تراودها ولكن لا لسان لها يتكلم، مما يجعل الأجوبة مؤجلة دائما بالنسبة إليها.

صرخت ماتيا في وجه روكو الجالس قبالتهما:

– لِمَ أتيت بنور إلى هنا؟ ألا أكفيك أنا؟

ابتسم ابتسامة ماكرة...

– أتيت بها لتري الفتاة التي يحبّها عمّار، أنتِ تحبينه وهو يحبّها، ألا تخجلين من نفسك؟! أنظري إليها، دقّقي فيها كما كنتِ تفعلين للتّو، أنظري إلى جمالها، إلى شعرها، إلى جسدها كم هو متناسق، إلى شفاهها، إلى عينيها، إلى كل شيء.

أومأ روكو إلى أحد رجاله، فاختفى اثنان منهما، ثم عاودا الرجوع وهما يقتادان مرزوق وهمام مقيدا الأيادي، وآثار الضرب على وجوههما، وأجبرهما على الجلوس على ركبتيهما أرضا.

نظر همام إلى نور...

– أنا آسف يا نور.

ثم طأطأ رأسه...

حاولت نور أن تقوم، فمنعها أحد الرجال الواقف خلفها مرتكزا بقبضته القوية على كتفها، تريد أن تقول له:

– لا عليك كنتُ سآتي دون أن تخبرهم، لا عليك كل الناس تفدي روحها بأرواح غيرها من الناس إلا العشاق، لا عليك الكدمات التي في وجهك تدلّ على حجم التعذيب التي تعرضت له، لا يمكن تحمّل كل العذاب وحدك، إلا عذاب الحب هو الذي يمكن أن نتحمله،

نتعايش معه، بل هناك من يستلذّه ولو طول العمر.

في هذه اللحظة ومن شدة الشوق، تمنّت أن يكون أحد المقبوضين في يدي روكو عمار حتى تراه ولو للمرة الأخيرة، أن تعانقه ولو ارتطمت بها رصاصة، تشم رائحته، تلامس جسده، تتأمله قبل أن يقضي عليها روكو.

التفت روكو بغضب شديد إلى مرزوق وهمام قائلا:

- لا أحد يعبث معي في مدينتي.

طلب روكو الهاتف من أحد رجاله، وشكل رقم الاتصال بعمار...

- نور في قبضتي، أنتظرك في المسرح.

وقف روكو واتجه بخطى متثاقلة مخرجا مسدسه نحو نور، وجه المسدس إلى رأسها، وأخرج كل رجاله مسدساتهم باتجاه مرزوق وهمام حتى لا يحاول أحدهما التهور والتدخل.

خاطب ماتيا:

- أين اللوحة أو سأقتلها؟

ترتجف نور من شدة الخوف، تذرف الدموع، بينها وبين الموت حركة بسيطة للزناد، يتطلب الخروج من العالم كبسة زر، كبسة يمكن أن تخرج الآلاف في لحظة أقل من الثانية، كيف أن الموت سهل جدا، في القضاء على عمر من الحياة...!!

صرخت ماتيا في وجه روكو:

- لا تفعل أيها المخادع، ألم تتفق مع عمار؟ أنا لا أعرف أين توجد اللوحة، لا تفعل أرجوك.

– تكلّمي، ستتسببين في قتلها، أين هي اللوحة؟

في تلك اللحظات الصعبة، أومأ إلى رجله الواقف على رأس مرزوق، ليطلق رصاصة تخترق رأسه وترديه جثة هامدة، وتصرخ نور وماتيا، بينما يغمض عينيه وترتعد أوصال همام وهو يرى مرزوق يهوي على الأرض وقد انفجر رأسه أمامهم.

ثم يضع المسدس على رأس نور مهددا ماتيا بقتلها إذا لم تخبره بمكان اللوحة، تفكر ماتيا في تلك اللحظة المجنونة، هي فرصتها إذا أرادت التخلص من الحاجز الذي بينها وبين عمار، وهي نور، يمكنها عدم التكلم، وبذلك تتخلص منها بيد غيرها، تتخلص من الغيرة التي سيطرت عليها، سيحزن عليها ثم يقوم الزمن بمسحها من ذاكرته كما أنساها هي مراد المغدور، فرصة لن تجد مثلها، لن تكلفها شيئا، ستنهي المسألة في لحظة الفوضى هذه، ستغمض عينيها مرة واحدة في طلقة واحدة، في صرخة واحدة، ينتهي ألم قد يستمر في الحالة الأخرى مدى الحياة، ستنقذ عمار ونفسها وتضحي بنور، بل ستنقذها من هذه الفوضى التي تحدث داخل رأسها...

يتصاعد صوت روكو وتتصاعد معه ضربات قلبها، ينتظر ردها الحاسم يريد أن يحسم الأمر مدركا أن ماتيا قد تضحي بنور لكي تنزع عقبة من طريقها، يريد أن يختبرها أن يخيرها بين وجودها ووجود نور... ترتعد ترتجف تبكي بدموع تغسل كل وجهها...

فجأة رنّ هاتف روكو، وإذا به عمار يتكلم:

– أترك نور أيها المخادع، ألم نعقد اتفاقا؟ دعها وشأنها، لا دخل لها فيما بيننا.

– سأدعها وشأنها إذا أتيت وأعطيتني اللوحة.

- أنا قادم.

- أخشى أن تصل متأخرا.... ههه

قطع الاتصال، واتجه بكلامه إلى نور:

- أظنه سيتأخر يا عزيزتي.

أحسّت ماتيا أنه سيخدعهم كلهم، سيقتل نور ويقتل عمار، وربما سيقتلها، حتى وإن لم يقتلها فقتل عمار يكفي.

قاطعته ماتيا:

- سأخبرك عن مكان اللوحة!!

- حقا، الآن أنت تعرفين مكانها ههه.

نظرت نور إليها وهي تحدث نفسها...

- قبل قليل كنت على وشك الموت رعبا على يديها لم ترد إخباره، والآن حين علمت أن عمار قادم تكلمت، أتراها تخشى على عمار أم عليّ أنا؟ أتراها تحبه؟ هل تريد التضحية بي ثم تبقى هي مع عمار؟ أأخطأتُ عندما سلمتُ نفسي لهم؟

بينما تزدحم الأسئلة في رأسها، يفك أحد رجال روكو يدي ماتيا، ثم يفك روكو قيد نور متجهين خارج القاعة تاركين همام يحرسه أحدهم، ماتيا تتقدم روكو وهو يمسك بمرفقها وخلفهما نور مقيدة يمسك بمرفقها أحد رجاله، تتجه ماتيا إلى الرواق الذي يحاذي قاعة المسرح وفي الجهة المقابلة يصعدون إلى الطابق الأول فالطابق الثاني، وبعدها يتجهون إلى آخر الرواق حيث قاعة كبيرة تحتوي على معدات قديمة موضوعة في أخزنة تتوسط القاعة مائدة كبيرة جدا تكاد تأخذ

كل مساحة القاعة.

دفع روكو ماتيا إلى داخل القاعة دفعا جعلها تخطو خطوتين حتى سقطت على الأرض، وروكو ينظر إليها منتظرا أن تدلّه عن اللوحة، وهي ترتجف من الخوف، لا تثق في ردة فعله، فربما قتلها فور إخباره، أو قتل نور، كل شيء ممكن، تتوقع كل شيء منه، لكن لا خيار لديها، يجب أن تخبره، يمكنها أن تنقذ نور وعمار.

أشارت إلى يمين القاعة حيث خزانة كبيرة تمتد من الركن إلى الركن الآخر، لها أربعة أبواب زجاجية كبيرة، بها بعض المستلزمات وأردية وألبسة للممثلين مطوية فوق بعضها البعض، وبعض الأقنعة، والأوشحة وشعر مستعار بمختلف الألوان...

طلب منها أن تجلب اللوحة سريعا... أخذت كرسيا كان محيطا بالمائدة الكبيرة، صعدت عليه ثم فتحت الباب بكلتا يديها، مدت يديها إلى نهاية الرف، تتحسس بأصابعها لوحة ملتفة برداء رقيق، تسحب كل الأشياء التي تعيق رفعها، لتسقط كلها أرضا ونظرات روكو لا تفارقها، يترقب إخراج اللوحة التي طالما بحث عنها، ولما شعر أنها أبطأت أشار روكو لرجله أن يأتي باللوحة له، اقتحم الرجل الخزانة دافعا ماتيا إلى التراجع إلى الوراء، أمسك باللوحة، وروكو يخاطبه غاضبا:

- بهدوء وإلا ستتلفها أيها الغبي.

استمر الرجل في سحبها بهدوء إليه وهي ملفوفة في رداء أبيض، وأخذها إلى روكو وقد برقت عيناه فرحا، ذهب إلى المائدة الكبيرة وجلس على أحد الكراسي ثم وضع مسدسه جانبا، ليفتح بعناية فائقة الرداء وكأنه يعالج لغما أرضيا يخاف أن ينفجر في وجهه، وبعد أن فتح

الرداء كله، تغيرت ملامح وجهه، انتفخت أوداجه، وتطاير الشرر من عينيه، ثم رمى باللوحة إلى الحائط حتى تتكسر.

- المحتال خدعني، اللوحة فارغة.

أمسك المسدس مرة أخرى وهرول إلى نور، وضع فوهة المسدس على جبهتها...

- أأقتلك الآن؟ عمار يلعب بالنار، يريدني أن أقتلك.

لتنطق ماتيا:

- لا يا روكو، ليس ذنبها، أقتلني أنا، أنا المذنبة.

رد روكو:

- سأقتلكم جميعا، تستحقون الموت جميعا.

بينما هو منتفض، دخل عليهم كريم وهمام وعمار، يحملون مسدسات، ليوجه كل واحد فيهم المسدس في وجه الآخر، ويتصاعد الصراخ على بعضهم البعض...

روكو:

- أيها المخادع... أين اللوحة؟

أجاب عمار وهو يتأمل في نور، ونور تنظر لأول مرة وجها لوجه مع عمار، فتنسى ما هي فيه، لم يكن ينتظر أن يكون اللقاء هكذا، تبدلت ملامح نور، أحس أنه هو السبب في حالتها الرثة الآن، مستعد هو أن يرمي نفسه أمام الرصاص حتى يهبها الحياة، وهي تنظر إليه، تتأمله جيدا، لعلها ربما آخر مرة ستراه، هو قريب منها اللحظة، لكن لا تستطيع أن تتحسسه، أن تنطق اسمه، أن تتلمس منحنيات وجهه،

تقترب من أنفاسه، تحتضنه ثم تموت، نست كل من حولها، أهذا هو الذي أردت أن أكتفي به؟ لكن القدر أبى، لكنه الآن يتحرك أمامها بشحمه ولحمه، وهي الآن أمامه بشحمها ولحمها، دواء الأرواح أن ترى بعضها، أن تلتقي، أن تتلامس، أن تحس بأجساد بعضها، دواء الأرواح أن تنصهر في بعضها البعض، لكن بعد كل هذا الغياب، تفصلهما عن بعض بضعة خطوات، بعد أن كانت تفصلهما بلدان، لا يقدر أي شيء على تحدي العالم سوى شيء اسمه الحبّ...

التفت عمار لصراخ روكو، قائلا له:

– اللوحة في مكان سري.

ماتيا:

– كيف غيرت مكانها يا عمار؟!

عمار:

– رأيت أن المكان لا يفي بالغرض، عندما رجعت ونحن هاربان نزعت اللوحة ووضعتها في مكان لا يخطر على بال أحد.

روكو:

– أين اللوحة وإلا قتلتُ نور...؟

– أطلق نور وماتيا أولا وسأخبرك عن مكانها.

– أتحسبني غبيا؟ تخدعني أكثر من مرة وأصدقك.

– ههه كنت تظنّي لقمة سائغة، كنتَ غبيا عندما استسهلتني.

– أين اللوحة؟

- أطلقهما أولا.
- أنت أولا.
- بل أنت.
- اللوحة هنا في الغرفة.
- أين؟ أين؟
- أطلقهما أولا.
- أخبرني أولا وإلا سأقتلهما.
- اِنتظر... اِنتظر سأخبرك أين اللوحة.
- أين هي؟
- هي تحت المائدة تلك.

مشيرا إلى المائدة التي تتوسط القاعة، فأشار روكو إلى رجله أن يفتش تحت المائدة، ولّما انخفض الرجل حتى سمع الجميع صفارات الشرطة وطلقات رصاص في خارج المسرح، فارتبكوا جميعا، فبدأ إطلاق النار في كل الاتجاهات حتى أصيب الرجل المرافق لروكو بطلقة مميتة وهو يحاول الذهاب إلى ماتيا، فجذبت ماتيا نور بعدما فرت من روكو وأسرعت إليها متجهتان إلى النافذة التي بجانبهما، ثم أومأت لها أن تصعد على النافذة وترمي نفسها إلى القناة المائية بسرعة قبل أن تصيبها طلقة من الطلقات وصرخ عليها عمار أن تقفز ولا تخاف فهناك في الأسفل قناة مائية، وأنه سيلتحق بها.

بينما روكو يتبادل إطلاق النار مع عمار، انتبه إلى محاولة فرار نور، فوجه مسدسه إلى نور يريد أن يصيبها لكن ماتيا وقفت لتستقبل في

صدرها رصاصة عمها، منقذة نور من إصابة محققة في ظهرها، ليقوم عمار بإصابة روكو في كتفه الأيمن، أسرع عمار إلى النافذة يطل على نور، وذهب إلى ماتيا ليضعها على ذراعه محاولا تفقد حالة إصابتها فإذا هي تنظر إليه، مدت يديها إليه، ليضع كفه على كفها، وابتسامة عميقة ترتسم في وجهها، أومأت له بالاقتراب، ثم قالت له:

– اِذهب إلى حبيبتك فقد تأخرت كثيرا..!!

ثم لفظت آخر أنفاسها... إلى الأبد.

أغمض عينيها، وأنهى قصة لم يرد أن تبدأ معها، ثم رمى نفسه من على النافذة، فسقط في قناة المياه مع باقي رفقائه الواحد تلو الآخر، وهم ينادون بأعلى صوت:

– نور... نور... نور...

تسمع نور صوت عمار أكثر من أي صوت آخر، وهي تتخبط وسط المياه، تعجز عن مقاومة التيار، عن النطق، يتسرب الماء في جوفها، تدفعه بقوة، ثم تلوح بيديها في كل مكان محاولة مقاومة الغرق، تدفع برجليها من أجل أن ترتفع إلى سطح الماء، تدفع الماء من جوفها، تحاول أن تنطق حرف العاء، تنطق آ..آ.. ولكن حرف لا يسمع، لا يرى، الظلمة تكسو المكان والقمر في غياب، الأصوات تتعالى تعم المكان...

– نور... نور... نور...

الآن، اختفت المسافات والأمكنة، لا يوجد بينهما إلا الظلام بينما بدأت النار تظهر ألسنتها من نوافذ المسرح، لا يرفع هذا الظلام سوى أن تصرخ، أن تنتفض، أن تنقذ نفسها من الغرق، ومن البعد، ومن العذاب الذي طال زمنا مديدا، لن يكون ذلك إلا إذا نطقت بالكلمة

السحرية التي تتعثر في تهجئتها، كانت اللحظات طويلة على عمار، يصرخ بأعلى صوت يحاول أن يحفز نور أن ترد، أن تصرخ، هي تسمعه، وتشعر قربه، تدفع كل الماء من جوفها، ثم تتشجع وتنتفض...

تقول:

-ع....ع...ع.....عم.....عم....عمار...

وفي آخر الكلمة تتمكن من نطقها بكل قوة دون تردد بكل ما أوتيت من قوة.

- عمار... عمار...

واتجه عمار إلى حيث مصدر الصوت، وكأنه يسمعه لأول مرة في حياته...

الفهرس

إهداء..... ٥

الفصل (١): البدايات هي نهايات لأشياء أُخرى..... ١١

الفصل (٢): في فوهة البندقية..... ٣٣

الفصل(٣): ...وتتقاطع الأحزان ٥٥

الفصل (٤): رقصة الموت ٧١

الفصل (٥): اختطاف مزدوج..... ١٠١

الفصل (٦): للورد أشواك ١٣١

الفصل (٧): اقتراب مؤلم... ..... ١٥٩

الفصل (٨): إكتمال اللوحة ١٨٩

للنشر والتوزيع